



سياسية - فكرية - ثقافية

اقتصادية اجتماعية

الحزب الشيوعي السوري - المكتب السياسي

العدد (٣٠) - تموز / يوليو ٢٠١٩

الافتتاحية:

محاولة واشنطن تجفيف امتدادات إيران الإقليمية

تضمنت سياسة "الاحتواء المزدوج" للعراق وإيران، التي اتبعتها إدارة جورج بوش الأب بعد حرب 1991 ثم أعلنتها إدارة بيل كلينتون سياسة رسمية لها، اتجاهًا إلى عدم تغيير البنية الاجتماعية الحاكمة في بغداد منذ تأسيس الدولة العراقية عام 1921. وقد ظهرت ملامح ذلك، بعد استسلام الجيش العراقي بتلك الحرب أواخر شباط 1991 في "خيمة صفوان" بأيام قليلة، لـما أغمضت الإدارة الأميركيّة عينيها عن سحق صدام حسين انتفاضة الجنوب، التي اعتبرتها واشنطن امتداداً لإيران واتّجاهها إلى تقويض الواقع التقليدي القائم في بغداد. فيما صرّح وزير الدفاع الأميركي هارولد براون في آب 1995، عقب انشقاق صهر الرئيس العراقي الفريق حسين كامل ولجوئه إلى عمان، أنَّ الولايات المتحدة تريد "بديلاً من



داخل النظام ومن منطقة الوسط". تغيّر ذلك مع إدارة بوش الابن، الذي اتّجه، وقبل (١١ أيلول ٢٠٠١)، إلى سياسة التخلّي عن "الاحتواء المزدوج" لمصلحة احتواء منفرد لبغداد عبر سياسة "العراق أولاً" التي تحولّت، بعد ضرب البرجين، إلى اتّجاه واضح نحو غزو العراق، وهو ما بانت ملامحه الواضحة في "خطاب حالة الاتحاد" الذي ألقاه الرئيس الأميركي في الشهر الأول من ٢٠٠٢ بعد قليل من غزو الأميركيان لأفغانستان. كانت الترجمة الفورية لذاك تقارباً إيرانياً - أميركياً علنياً، لم يقتصر على مظهر التلاقي الموضوعي، كما حصل بينهما تجاه كابول "طالبان" في خريف ٢٠٠١، وإنّما امتدّ إلى تلاقي الإرادات، وهو ما أظهرته صورة وفد المعارضة العراقية، الداخل إلى مبني الخارجية الأميركيّة في أوائل آب ٢٠٠٢، بزعامة السيد عبد العزيز الحكيم، الذي صرّحت مصادره بأنّه قد أخذ الضوء الأخضر من المرشد خامنئي قبل حصول هذا اللقاء، وهو ما تكرر في مؤتمر لندن للمعارضة العراقية في الشهر الأخير من عام ٢٠٠٢، والذي حضره السفير الأميركي في أفغانستان سلمان خليل زاده، حيث بانت طبيعة التركيبة الحاكمة المقبلة في بغداد من خلال الحاضرين في ذلك المؤتمر، الذي غابت عليه التركيبة الشيعية - الكردية.

كان يوم سقوط بغداد بيد المحتل الأميركي في ٩ نيسان ٢٠٠٣ بداية شهر عسل الزواج الإيرلندي - الأميركي، وقد بانت ملامح ذلك عبر واقعة حصول حلفاء إيران التقليديين على الحصّة الكبرى من كعكة "مجلس الحكم العراقي" الذي شكّله الحاكم الأميركي "بول برير" في تموز ٢٠٠٣، بعدما شكلوا الستارة المحلية الرئيسة للغزو، ثمّ للاحتلال، فيما أعطت طهران تقاربات لافتة حيال الولايات المتحدة مقابل ذلك، كما جرى في شهر الرئاسة الدورية لمجلس الحكم من جانب السيد جلال طالباني، لمّا اعترفت طهران بمجلس الحكم وأعادت فتح سفارتها في بغداد، الأمر الذي ترافق في الشهر نفسه، أي نشرين الثاني ٢٠٠٣، مع اعلان طهران وقف برنامج التخصيب النووي الإيراني.

كان قرار السلطة الإيرانية استئناف برنامج التخصيب النووي في ٨ آب ٢٠٠٥، بعد قليل من انتخاب المتشدّد أحمد نجاد وهو المدعوم من السيد خامنئي، إعلاناً عن حصول الانشقاق الإيراني- الأميركي بمبادرة من طهران. ويبو أن الإيرانيين درسوا ملياً، في حركتهم الهجومية الاستباقية هذه، ما حصل لدمشق التي وُضعت في موقع دفاعي من جانب القطب الواحد الذي بحضوره المباشر إلى الأقليم منذ يوم ٩ نيسان ٢٠٠٣، والذي أراد بعد هذا الحضور إعادة النظر في الأدوار الإقليمية السابقة، وهو ما أدى إلى صدام مباشر مع دمشق، توضّحت ملامحه منذ زيارة الوزير "بأول" للعاصمة السورية بعد أسابيع من سقوط بغداد، ثمّ وضعت عناوينه وأجناته مع القرار ١٥٥٩ (٢ أيلول ٢٠٠٤) الداعي لسحب القوات السورية من لبنان.

لم يكن هذا القرار الإيراني رد فعل على ما جرى عند شاطئ المتوسط، وإنّما تعبيراً عن محصلة قوى رأت طهران أنّها أصبحت تمتلكها، عقب أن أزالت الولايات المتحدة أعداء إيران في الشرق والغرب، الذين دفعت طهران مئات الآلاف من جنودها عبّاً لإزالة أحدهم عند حدودها الغربية، وبعد أن تحقّق لطهران نفوذ في بلاد الرافدين (عبر مشهد شبيه بالذي عبر عنه كارل ماركس تجاه ما قام به بسمارك من تحقيق للوحدة الألمانية في عام ١٨٧١، بعبارة "إنه يقوم بجزء من عملنا")، وهو ما يستدعي الانطباعات الداعية للتأمّل حول الفرق بين العقليتين الإنكليزية والأميركية اللتين يمكن تلمس الفرق في استيعابهما للوضع العراقي من خلال مطالعة "أوراق" "جيبرتروود بيل" التي أقفت لندن بتبنيّ فيصل ملكاً على العراق في صيف ١٩٢١ وقراءة مذكرات "بول برير" عن العام الذي قضاه في العراق (النفوذ الذي سعى إليه حكام بلاد فارس خلال الخمسة قرون الفاصلة التي تبدأ مع نشوء الدولة الصفوية ١٥٠٢)، ليضاف ذلك إلى ما تملكه طهران من أوراق قوة امتدادية في لبنان وفلسطين، حيث أصبحت إيران، عبر قوى محلية فيهما، لاعباً رئيسياً في الصراع العربي - الإسرائيلي، ثم ليضاف ذلك إلى نفوذ إيران في اليمن عبر أتباعها الحوثيين الذين سيطروا على صنعاء في ٢٠ أيلول ٢٠١٤.

ربّما، لن يكون هناك الكثير من المغالاة في القول إنّ هناك بداية تنازع نفوذ بين طهران وواشنطن، على العراق، الآن. حيث يوجد للثانية قوات وقواعد عسكرية، فيما تملك الأولى الامتداد السياسي المحلي، ويملك الموالون لها الكتلة البرلمانية



الأقوى وفواصل السلطة والcentres الكبار. تعطي المسافة المتزايدة، باطراد، بين واشنطن والقوى الشيعية العراقية، مؤشرات على ذلك.

هنا، كان حديث وزيرة الخارجية الأمريكية "كوندوليزا رايس" عن "معتدلين في مواجهة متشددين" في الشرق الأوسط، في أثناء زيارتها للمنطقة في تشرين الأول 2006، مؤشرًا أولياً على الاتجاه نحو تبني هذه الاستراتيجية الجديدة، بما تعنيه من انشاء حلف إقليمي ضد طهران برعاية واشنطن، بكل ما يحويه ذلك من اتجاه أمريكي مستعد لإعادة الاعتماد على العديد من الأنظمة العربية القائمة، وما يعنيه هذا من التحلي عن اتجاه المقرطة الذي تبنّه الإدارة الأمريكية عبر "مشروع الشرق الأوسط الكبير" (13 شباط 2004). هذا، أيضاً، يترافق مع ملامح أولية عند واشنطن للتخلي عن السياسة التي اتبّعها، منذ تولي بوش الابن للأمور عام 2001، بوضع عملية "التسوية" للصراع العربي الإسرائيلي في البراد، ربما للاتجاه نحو محاولة تجفيف ينابيع الامتداد الإيراني إلى شرق المتوسط عبر البؤر المتقدّرة في هذا الصراع. طرح ما يسمى بـ"صفقة القرن" من خلال (ورشة البحرين) في 25-26 حزيران 2019، ولو عبر شقّها الاقتصادي، فيما شفّها السياسي سيطرة بعد الانتخابات الإسرائيلية (17 أيار) وتشكيل حكومة جديدة هناك، يدل على ذلك.

من الواضح، الآن منذ سحب ترامب التوقيع الأميركي على اتفاق 2015 النووي مع إيران يوم 8 أيار 2018 ثم بدء تطبيق العقوبات الأميركية على طهران في 4 تشرين ثاني 2018، مع اشتراط واشنطن ثلاثة شروط جديدة: تعديل الاتفاق النووي، اتفاق أمريكي-إيراني على البرنامج الصاروخي الإيراني، طرح ملف التمدد الإيراني الإقليمي، إن المنطقة، الممتدّة بين أفغانستان وساحل شرق المتوسط وصولاً للجنوب عند باب المندب، أصبحت ساحة للمواجهة بين القوتين العظميين في الشرق الأوسط الراهن، أي واشنطن وطهران: إلى أين سيقود كل ذلك؟ إلى تسوية، وهو ما تدلّ ظواهر عديدة على امكانية حصولها، أم إلى حرب؟

مقال مترجم:

هل انسحاب ترامب من الاتفاق النووي مع إيران يعني انهياره تماماً؟

هل انسحاب الرئيس الأميركي دونالد ترامب من الاتفاق النووي مع إيران يعني انهيار الاتفاق تماماً؟ أو بالأحرى، هل يكون انسحاب ترامب بداية لإعلان دول أوروبا المشاركة في الاتفاق انسحابها هي الأخرى نزولاً عند رغبة الأميركي؟

ترجمة: هيئة التحرير

كانت تلك الأسئلة التي جالت في أذهان الكثير من المحللين والمراقبين لشؤون الشرق الأوسط بعد لحظات من إعلان ترامب انسحابه من الاتفاق النووي الذي يعتبره "الأسوأ" في التاريخ، رغم أنّ دول أوروبا والأمم المتحدة حذرتاه أو لا من هذا الأمر وطلبتا بديلاً يمكن اللجوء إليه إذا كان يرغب فعلاً في الانسحاب من الاتفاق، لكن على أي حال حدث ما حدث ولم يعد هناك مجال للرجعة، فالرئيس الأميركي الذي يأتي للمرة الأولى من خارج دوائر صنع القرار السياسي وأثار جدلاً كبيراً منذ تولّي السلطة، نفذ ما عزم عليه وتعهد به منذ اللحظة الأولى، وهو ما يفتح الباب أمام تساؤلات لا تحصى حول المتوقع لما بعد الانسحاب الأميركي.

الشّرخ القاري:



إنّ الأمر الذي يطرح نفسه بقوة هو أنّ يحدث انقسام بين الولايات المتحدة وأوروبا، فالدول الأوروبية لا تزيد أن تضيّع 21 شهراً من المفاوضات جرت خلال عامي 2013، 2014 من أجل التوصل إلى اتفاق 2015 مع إيران هباءً.

وإيران لن تدخل المعركة مباشرة وتواجه الولايات المتحدة، بل ستتعصب دور العاجز في هذه الأزمة، وستتواصل مع باقي الدول التي وقّعت على الاتفاق النووي، وأيضاً لروسيا والصين اللتان تساندانها بالفعل، حينها ستطلب اتفاقاً يعوضها عن العقوبات الأمريكية الجديدة وستبقى الاتفاق مع الدول الأوروبية فقط. وبالتالي ستتجه أوروبا نفسها غارقة في أصعب معضلة بتاريخها. حيث أنّ المفوضة الأوروبية "فريديريكا مو غيريني" تدعم وتؤيد بقوة الاتفاق النووي، ولكنها ستكون مقوّضة الصالحيات إذا كان لأصحاب القرار في ألمانيا وفرنسا وبريطانيا رأي آخر في شأن الاتفاق النووي، أو إذا لم تتوصل الدول الثلاث إلى اتفاق مشترك فيما بينها. بمعنى أدق، هل يمكن لقيادة ألمانيا وفرنسا وبريطانيا اتخاذ قرار يتخطّى أمريكا؟ وهل في وسعهم الدخول في مفاوضات لإبرام اتفاق جديد مع الإيرانيين دون موافقة أمريكية، أم أنّهم سيرتبطون سراً وعلانية بقرارات ترامب وإدارته.

هذه اللحظة، ستكون حاسمة للدول الأوروبية، فالسؤال الذي يطرح نفسه هل سيعارض هؤلاء القادة سياساتهم التي تبنّوها بأنفسهم على مدار السنوات الماضية؟ أم أنّهم سيودون ببلادهم إلى صدّع رهيب مع أمريكا؟ وهناك أمر ثالث مطروح، إذا فرّرت المستشارية الألمانية "أنجيلا ميركل" وجارها الفرنسي "إيمانويل ماكرون" الالتزام بالاتفاق النووي، حينها ستتجه بريطانيا نفسها في مواجهة أزمة أخرى، فهل ستضيّق بفرنسا وألمانيا أم تخلّي عن علاقاتها مع الولايات المتحدة؟

لا تتعلّق الأزمة بالتداعيات السياسية فقط، فهناك مسألة أخرى لا بدّ من وضعها في الحسبان، وهي أنّ أي خلل في العلاقات الأمريكية الأوروبية من شأنه أن يؤثّر على حلف شمال الأطلسي (ناتو) واستقراره، وهو ما يعني وبالتالي أنه سيكون من مصلحة إيران أن تعلن تمكّنها بالاتفاق النووي رغم تراجع وانشطّن حتّى تجد الولايات المتحدة وأوروبا أنفسها في مواجهة أزمة أخرى، فهل ستضيّق بفرنسا وألمانيا أم تخلّي عن علاقاتها مع الولايات المتحدة؟

إيران أصبحت في انتظار الرد الأوروبي ومدى استجابته للضغوط الأمريكية للانسحاب من الاتفاق النووي، فهذا الرد سيكون حاسماً إلى جانب قوة العقوبات الجديدة المفروضة على إيران، في تقدير رد فعل نظام "آية الله خامنئي" في طهران. فمثلاً يمكن أن تقرّر إيران أن تعود إلى تهديداتها بالانسحاب من الاتفاق النووي لكنّها لا تنسحب منه رسميّاً حتّى لا تفقد مليارات الدولارات التي حصلت عليها مع تخفيف العقوبات، وربما بامكانها أيضاً أن تنسحب تماماً من الاتفاق، لكنّها على أي حال لن تغامر في البداية وستنجزا إلى المراوغة والبحث عن حلول وسط. وهناك وسائل أخرى في يد إيران للضغط، حيث يمكن لإيران أن تعود لتصحّيب اليورانيوم بنفس المستويات التي كانت تقوم بها في السابق قبل إبرام الاتفاق النووي، أو أنّها ربما تعمل على إعادة تشغيل المفاعلات التي تمّ تخفيض نشاطها بفعل الاتفاق، وهذا لا يعني أنّ إيران تعلن انسحابها من الاتفاق النووي أولاً، حيث ستتجه إيران إلى حجة أنّ الولايات المتحدة هي من نقض الاتفاق أولاً، وستتوكّد أنّ تخصيب اليورانيوم لا يتم بالمستويات التي تنتهي بصناعة الأسلحة النووية، وأنّها ملتزمة بالاتفاق النووي وباتفاقية نزع السلاح والاستخدام السلمي للطاقة النووية، وتكون إيران بذلك قد استأنفت تخصيب اليورانيوم (رمزيّاً).

هذا السيناريو لا يعني بالضرورة أن يوشك الوضع على الانفجار كما كان في السابق قبل إتمام الاتفاق النووي عام 2015، بكل سهولة يمكن أن تكون هذه ورقة مقايضة في أيدي الإيرانيين ضدّ أوروبا لإجبارهم على الالتزام بالاتفاق النووي، بل أنّها قد تصل إلى حد تجعل الجميع يتوقف ليفكر قليلاً في ملابسات وتداعيات ما قام به ترامب، وسيكون أمام الجميع فرصة للتراجع عن الحافة التي وصلت إليها التيارات المتشدّدة في كل من إيران والولايات المتحدة.

في نفس الوقت، هناك عنصر حاسم وهو الحرس الثوري الإيراني وفيلق القدس الذي يعمل في سوريا ولبنان، فوفقاً لمزاعم أجهزة الاستخبارات الإسرائيليّة، تعمل طهران منذ فترة على توجيه ضربة انتقامية ضدّ أهداف إسرائيلية بعد الغارات الإسرائيليّة التي استهدفت قواعد إيرانية في سوريا. وعلى الرغم من أنّ هناك حرب في الظل تجري بين إيران وإسرائيل على أرض سوريا، وبينما هذه الحرب تبدو صراعاً منفصلاً، فإنّ الواقع يؤكد أنّ أي تغيير على جبهة الاتفاق



النوعي الإيراني سيغذي الصراع بين كل الأطراف. ولو حدث فعلاً وشنت إيران هجوماً انتقامياً على إسرائيل، فإنه من المستحيل التنبؤ بكيفية رد ترامب ومدى العقوبات التي يمكن أن يفرضها، وكذلك من الصعب التنبؤ برد فعل الأوروبيين.

الفخ العالمي:

حين تم توقيع الاتفاق النووي، كان التأكيد دوماً على أنَّ هذا الاتفاق غير مرض، وهو ما أعلن عنه الرئيس الأمريكي السابق باراك أوباما، لكن الحقيقة هي أنَّ أحداً لم يكن يصدق أوباما أنَّه سيجذب قوَّاته العسكرية للترويج لحرب ضدَّ إيران وفي الجانب المقابل ورغم تأكيدات إيران على حقوقها في استخدام الطاقة النووية، فإنَّها كانت على استعداد للتنازل عن جزء من هذا الحق في مقابل رفع العقوبات. الآن، وبعد وصول ترامب للبيت الأبيض، تغيرت نظرة طرف المعادلة كثيراً، والسؤال الآن هو إلى أي حد بات الطرفان على استعداد للمزيد بشكل أكبر؟ بمعنى آخر، سيكون العالم أمام سباق من ردَّات الفعل المتواصلة دون أي حدود أو قيود. وحينها ستجد إيران وكوريا الشمالية قادرتين على تطوير السلاح النووي دون أي عوائق، وهذا يعني أنَّ العالم سيكون على شفا حرب جديدة لا مفرَّ منها، وستكون هناك عدَّة ضحايا لهذه الحرب، أبرزها المملكة العربية السعودية وسوريا ولبنان وإسرائيل.

إنَّ هذا السيناريو لا يزال بعيداً إلى حدٍ ما، ولكنه خيار مطروح متوقفٌ على مدى استجابة طهران والجانب الأوروبي للقرار الأمريكي.

حرب الوكلاء: في عام 2014، حين سقطت أغلب محافظات العراق في أيدي تنظيم (داعش) الإرهابي، كانت إيران أولَ من أسرع بتجهيز وتنظيم وتسليح ودعم الحكومة العراقية ودرَّبت الآلاف من المقاتلين الشيعة تحت اسم (قوَّات الحشد الشعبي) التي بانت من أهم القوى السياسية والعسكرية في العراق، وهذا يعني أنَّه بإمكان إيران استخدام قوَّات "الحشد الشعبي" التي تسعى بالأساس لإجبار الولايات المتحدة على مغادرة الأراضي العراقية، لتنفيذ هجمات ضدَّ القوَّات الأمريكية المتمركزة في العراق. وهذا السيناريو له العديد من الجوانب التي يمكن اللجوء إليها دون أن تكون إيران متورطة بشكل مباشر، فمثلاً يمكن أن تكون قذيفة هاون أو صاروخ أو قنبلة على أحد جانبي الطريق، وبالتالي لن يكون هذا مرتبطاً بالحشد الشعبي أو بإيران، وستكون طهران قادرة على التبرُّؤ من هذه الهجمات طالما لا يوجد أي دليل على ارتباطها بها.

وسوريا أيضاً هي الأخرى ملعب يمكن أن تتجه إليه إيران للردم على القرارات الأمريكية، ولدى إيران ميليشيات شيعية في سوريا قوامها يزيد عن 80 ألف مقاتل، يمكن اللجوء إليهم في هذه الحالة، حيث يمكن من خلالهم استهداف إسرائيل للمرة الأولى منذ بداية النزاع في سوريا، كما أنَّه بإمكان إيران وميليشياتها التابعة في سوريا استهداف ما يزيد على 2000 مقاتل أمريكي متواجدين في شمال وشرق سوريا.

كذلك يمكن لطهران استخدام ميليشياتها في لبنان وفي اليمن للضغط على أوروبا والولايات المتحدة، من خلال حرب عصابات عبر وكلائها في منطقة الشرق الأوسط، وبما أنَّها حرب عصابات ووكلاء، فلن يكون هناك دليل واحد يمكن اتهام إيران بأنَّها وراء هذه الهجمات في أي دولة.

إنَّ السيناريوهات المطروحة أمام الجميع لا تبشر بالخير، وتهدد بتحول العالم وتغييره، في إطار تغييرات تعصف بمنطقة الشرق الأوسط بأكملها على مدار الثمانين سنوات الماضية، وهو ما يتطلَّب من الجميع الالتزام بالهدوء والتوقف قليلاً للتفكير في مآلاته وتداعيات تحركاتهم، فهل تكون القوى الكبرى على قدر المسؤولية؟ أم أنَّ حمى "ترامب" والتصرُّفات المرتكبة والقرارات السريعة انتشرت في أنحاء العالم؟

تاریخ النشر 12 نیسان 2019

المصدر:



أنقرة بين واشنطن وموسكو

مصطفى سعد

سيطرت الدولة العثمانية على مدينة القسطنطينية عام 1453 عاصمة الإمبراطورية البيزنطية، ليبقى الصراع قروناً عدّة بين روسيا القيصرية التي ترى نفسها روما الثالثة، والعثمانيين، بذرائع عقائدية ولأسباب اقتصادية أهمّها السيطرة على المضائق البحرية. إلى أن اعتلى البلاشفة سدة الحكم في روسيا عام 1917 الذين انتكروا رؤى مختلفة عن سباقهم، فحدث تغييراً واضحاً لكن ليس جزرياً في العلاقة بين البلدين. أسفر عن هذا التغيير توقيع معاهدة الصداقة والأخوة في آذار 1921، ورغم انتهاء دولـة الخلافة عام 1924 واستلام كمال مصطفى أتاتورك مقاليد الحكم وتبني العثمانية لنظام للدولة، إلا أن العلاقات لم تتطور بين تركيا والاتحاد السوفيتي، بل بقيت في صعود وهبوط، مع ميل واضح للأتراك نحو الغرب. خصوصاً أن العالم صار واضح المعالم محدد بقطبين وحيدين أحدهما تمثّلـه الولايات المتحدة الأميركيـة وثانيهما يتزعـّمه الاتحاد السوفيـطي.

اختارت تركيا الغرب لما رأت أنه يحقق مصالحها الذاتية وبوائم مساعها في الاندماج بحضارته.

بعد الحرب العالمية الثانية أخذت العلاقة بين واشنطن وأنقرة بالتطور لتصبح تحالفاً في عهد الرئيس الأميركي ترومان بعد نجاح الحزب اليميني الوسطي (الحزب الديمocrطي) في الانتخابات عام 1950 ليصبح "جلـل بايار" رئيساً للجمهـورية، و"عدنان منـدريس" رئيساً للوزراء. شـارـكتـ تركـياـ الـولاـيـاتـ الـمـتـحـدةـ فـيـ الحـرـبـ الـكـوـرـيـةـ. وـبـوـجـودـ بـرـجـواـزـيـةـ كـمـبـرـادـورـيـةـ مـسـيـطـرـةـ فـيـ تـرـكـياـ، قـامـ الرـأـسـمـالـ الـأـمـيـرـكـيـ بـالـاستـثـمـارـ عـلـىـ أـرـاضـيـهـاـ، مـمـاـ أـدـىـ لـدـخـلـهـاـ فـيـ حـلـفـ النـاتـوـ فـيـ شـهـرـ شـبـاطـ مـنـ عـامـ 1952ـ، وـبـالـتـالـيـ تـكـسـبـ واـشـنـطـنـ حـلـيفـ قـوـيـاـ وـحـدـوـدـيـاـ، مـعـ عـدـوـهـاـ الـلـدـوـدـ الـاـتـحـادـ السـوـفـيـتـيـ حتى أنه في عام 1962 أصر "خـروـنـشـوـفـ" عـلـىـ تـقـيـكـ قـوـاعـدـ تـنـصـتـ وـصـوـارـيـخـ تـسـتـخـدـمـهـاـ واـشـنـطـنـ فـيـ الشـمـالـ الشـرـقـيـ لـتـرـكـياـ مـقـابـلـ صـفـقـةـ تـقـيـكـ الصـوـارـيـخـ السـوـفـيـاتـيـةـ فـيـ كـوـبـاـ.

بقيت علاقة أنقرة بواشنطن وموسكو على ما هي عليه في إطارها العام، مع بعض الحالات الخاصة مثل غزو تركيا لليونان عام 1974، الذي سبب توتراً في علاقة الحليفـينـ أمـيرـكـاـ وـتـرـكـياـ.

عام 1991 شهد حدثين هامين في المنطقة والعالم أولهما حرب الخليج الثانية، وثانيهما توقيع اتفاق الاتحاد السوفيـطيـ. في الحـدـثـ الـأـوـلـ شـارـكتـ أنـقـرـةـ عـبـرـ قـوـاتـ التـحـالـفـ التـيـ كـانـتـ تـنـطـلـقـ مـنـ أـرـاضـيـهـاـ (قـاعـدـةـ أـنـجـرـلـيـكـ) لـضـرـبـ العـرـاقـ، وـفـيـ الحـدـثـ الـثـانـيـ كـانـتـ أـوـلـ مـنـ اـعـتـرـفـ بـرـوـسـيـاـ الـاـتـحـادـيـةـ. وـظـهـرـتـ مـحاـلـاتـ لـبـدـءـ مـرـاحـةـ تـارـيـخـيـةـ تـخـلـفـ عـنـ سـابـقـهـاـ بـيـنـ الـبـلـدـيـنـ. وـبـعـدـ زـيـارـاتـ مـتـبـالـدـةـ وـقـعـ رـئـيـسـ الـوـزـرـاءـ التـرـكـيـ سـلـيـمـانـ دـيمـيرـلـ (الـذـيـ أـصـبـحـ رـئـيـسـ لـبـلـادـهـ فـيـ الـعـامـ التـالـيـ)ـ مـعـ الرـئـيـسـ الـرـوـسـيـ بـورـيـسـ يـلـتـسـنـ مـبـادـئـ عـلـاـعـلـاتـ بـيـنـ جـمـهـورـيـةـ تـرـكـياـ وـالـاـتـحـادـ الـرـوـسـيـ فـيـ 25ـ آـيـارـ 1992ـ، وـكـانـ مـنـ الـمـتـوـقـعـ أـنـ تـكـونـ ثـلـاثـ الـمـعـاهـدـ قـاعـدـةـ صـلـبـةـ بـيـنـهـاـ مـسـتـقـبـلـ جـدـيدـ.

إلا أن المتغيرات الإقليمية سرعان ما أظهرت اختلاف مصالح البلدين، وبالتالي تباين المواقف وتناقضها كالآرمة الشيشانية و موقفهما منها، وتدخل الناتو في آب 1995 ضد يوغوسلافيا في حربها على البوسنة والهرسك، كما في صراع أرمينيا المدعومة من روسيا وأيران وأذربيجان على أقليم "نار غوني كارباخ". فكان هناك حلم تركي سعى له أنقرة بفترة حكم الرئيس "توركوت أوزال" لخلق عالم أو أمة تركية تمتد من بحر إيجه حتى حدود الصين. كانت تركيا تعمل كما ترغـبـ الـوـلـاـيـاتـ الـمـتـحـدةـ وـإـنـ كـانـتـ أـسـبـابـهـاـ وـغـايـاتـهـاـ مـخـتـلـفـةـ.



في كانون الثاني من عام 1997 طلبت حكومة قبرص اليونانية من موسكو شراء منظومة صواريخ (سام_300)، مما جعل تركيا تخرج عن دبلوماسيتها بتصریحات رسمية تهدّد فيها باستخدام القوة العسكرية مباشرة في حال نشرت هذه الصواريخ.

حاول النظام في روسيا الوصول لتسوية مفادها سحب تركيا لقواتها العسكرية من قبرص الشمالية، مقابل إلغاء تلك الصفة، لكن طلبه قوبل بالرفض. وكي لا تذهب الأمور لصراع إقليمي بين دولتين حليفتين في الناتو تدخلت واشنطن بكل قلقها الدبلوماسي ونجحت بإقناع القبارصة اليونانيين بالعدول عن صفقتهم.

وتجدر بالذكر أن العلاقات التجارية الرسمية وغير الرسمية لم تتوقف أبداً بين موسكو وأنقرة.

ومع بداية الألفية الجديدة تولى ضابط المخابرات الأسبق فلاديمير بوتين الحكم في روسيا، الذي يمتلك مشروع وحلم بإعادة أمجاد روسيا القيصرية، تزامن عام 2002 مع نجاح حزب العدالة والتنمية في تركيا، معتمداً مبادئ عدّة منها التأثير في الأقاليم الداخلية والخارجية لدول الجوار، ومبادأ السياسة الخارجية المتعددة الأبعاد. ولتبيّن هذين المبدأين لابد من اتّباع أو ابتكار أساليب دبلوماسية جديدة، فكان أسلوبها دبلوماسياً متاغماً، سرعان ما ظهرت نتائجه لظهور تركيا بفعالية خارجية واستقلالية أكبر مما كانت عليه في فترات سابقة. قد يمكننا إسقاط فكرة لينين على الوضع التركي عندما تحدث عن إمكانية قيام ثورة في الأطراف ليست اشتراكية لكنها أيضاً ليست برجوازية. لنجد أنّ كلاً من بوتين وأردوغان قادا مرحلة جديدة في علاقة البلدين، مرحلة لا تهتم بالقضايا الخلافية، بالقدر الذي لا تتساها، لكنها تصبُ كل تركيزها على المصالح التبادلية بين البلدين، فشكل هذه العلاقة الجديدة محدّد واضح المعالم عنوانه المصلحة المشتركة.

وظهرت مواقف غزلية متبادلة، فما كان من روسيا -التي هي ليست ضمن الاتحاد الأوروبي- إلا أن تؤيد انضمام تركيا إليه، والأخير أيدت انضمام الأولى إلى منظمة المؤتمر الإسلامي كدولة مرافقه. وعام 2005 شهد افتتاح خط أنابيب (بلوستريم) الذي يقوم بنقل الغاز الطبيعي الروسي تحت مياه البحر الأسود. والتوافقات شملت عدة قضايا مختلفة منها العمل على حل الصراع العربي الإسرائيلي برعاية الأمم المتحدة، والعمل على عدم تغيير أنظمة الشرق الأوسط بقوة السلاح الأميركي (بعد مشاركة تركيا للمرة الثانية في غزو العراق)، كما كانت كل من أنقرة وموسكو مع تبني الحلول السلمية جنوب القوقاز وكأنه هناك اتفاق على عدم وقوع أي تغييرات جيوسياسية خصوصاً في منطقة البحر الأسود.

لكن عام 2007 عقدت روسيا اتفاق مع بلغاريا واليونان لنقل الغاز عبر بلغاريا إلى أوروبا عبر البلقان، مما كان يدل على عدم وجود رغبة روسية في استعمال الأراضي التركية كمعبّر للغاز الروسي نحو أوروبا، مما شكل خيبة أمل للأتراك.

مع بداية الربيع العربي، وتحديداً منذ بداية الأزمة السورية آذار 2011، بدأ الخلاف العلني في قراءة الحريق السوري، أسبابه، وطريقة إخماده، بدا كأن أردوغان يراهن على تسوية سياسية بين الإخوان المسلمين والنظام السوري، وعندما هبّت الرياح لا كما تشتته سفنه، اتّخذ موقفاً حاسماً من السلطة القائمة في دمشق، وذهب مع الإخوان المسلمين ومن لفّتهم، لتأسيس المجلس الوطني في 2 تشرين أول 2011، بعد زيارة فاشلة إلى دمشق لوزير الخارجية أحمد داود أوغلو في الأسبوع الأول من آب. ومع قطعية باريس والدوحة مع دمشق، بتنسيق تركي قطري، جرى في أيلول ترتيب دعوة لثلاثة تظيمات معارضة سورية في قطر، هي الإخوان المسلمين وإعلان دمشق وهيئة التنسيق، للدخول في محادثات من أجل تشكيل ائتلاف وطني سوري معارض، على غرار المجلس الليبي، يكون ذريعة لتدخل عسكري أجنبي. فشل المسعى التركي بسبب الموقف الحاسم لهيئة التنسيق على أن يتم ذكر في النص التأسيسي عبارتين هما: الرفض لأي تدخل عسكري خارجي والرفض للعنف من أي جهة أخرى.

اما الموقف الروسي فكان واضحاً منذ اليوم الأول للأزمة، بأنه رفض لأي تدخل، تحت أي بند، لعدة أسباب منها أهمية سوريا ومياها الدافئة بالنسبة له، ولأنه يرفض تكرار التجربة الليبية عاد منها خالي الوفاض.



الرئيس الأميركي باراك أوباما كان متربّداً ومتناقضاً، راضياً بأنّ تستلم تركيا وقطر ملف المعارضة السورية وتسلّحها. وما إن ظهرت الولايات السود (النصرة) عام 2012 وداعش عام 2013، والمنظمات العابرة للحدود، فقرّ الرئيس الأميركي محاربتها. أراد أوباما أن يثبت إبرة فرجاره لرسم الدوائر، فكان الشمال الشرقي الاختيار الأنسب له جغرافياً وديموغرافياً، فالاكراد هم الأكثر حاجة للدعم والأكثر قابلية للتعاون وبالأجر الأدنى، بسبب ضعفهم والعداء المتبدّل مع الجوار، مع ما ترافق بانقلاب سياسة الرئاسة الأميركيّة على الاخوان المسلمين منذ عام 2013، الذي أدى إلى خلاف الأميركي_تركي، فرأى الأول بأكراد سوريا كيان متّجنس غير مطيف، ولم تنجح فئات مدعومة من تركيا وغيرها في شق صفوف الأكراد فصاروا الكيان الوحيد القادر على التنظيم والاستقرار السياسي والأمني.

عملوا على إيجاد تباين موجود في مخيلتهم فقط بين منظمة كانوا قد صنفواها عام 1997 إرهابية هي "حزب العمال الكردستاني" وقوة حليفة لهم ومدعومة بشكل مباشر منهم هي "الاتحاد الديمقراطي" التي الفرع السوري لحزب عبد الله أوجلان.

لم تنس تركيا أنّ ثمرة مكافأتها على مساحتها في غزو العراق 1991 كان نواة لكيان كردي في العراق نفسه، بترت ذلك النواة سنة 1992، ولم يعد إسقاط الأسد أولوية بالنسبة للأميركي ولا للغرب، فوجدت أنقرة نفسها على خلاف مع واشنطن وموسكو في آن واحد.

ظهر الخلاف التركي-الأميركي بوضوح تام يوم 15 تموز 2016 بمحاولة الانقلاب الفاشل على نظام الحكم في تركيا، حيث سارع وزير الخارجية الأميركي جون كيري للتعبير عن أمله بالهدوء والسلام، ووجود سلطة تدير شؤون البلاد. السفارة الأميركيّة في واشنطن أصدرت بياناً ليلة الانقلاب، تصف به ما يجري في تركيا على أنّه انتفاضة، على عكس الموقف الروسي من الانقلاب، والذي أشيع أنه تم إحباطه بمساعدة الروس.

جاء هذا الحدث ليعزّز التقارب الروسي_التركي، وليثمر عنه اتفاق يقتضي بموجبه وقف الدعم التركي للمسلحين المقاتلين في حلب والغوطة وشمال حمص، مقابل عطاء روسي لعملية عسكرية تركية في خط جرابلس-الباب – أعزاز عام 2016. ومقابل صمت موسكو عن العملية العسكرية في عفرين أوائل 2018 مقابل اتفاق بوتين – أردوغان في 17 أيلول 2018 التي أعطى غطاء روسيّاً للوجود التركي العسكري-السياسي في محافظة إدلب. أخذت تركيا شريطاً حدودياً يمتد من جرابلس حتى منطقة ربيعة قرب بلدة كسب في محافظة اللاذقية على طول الحدود السورية-التركية فيه وجود تركي عسكري مع أتباع سوريين محلين من المسلمين يتبعون سياسياً لأنقرة بموافقة ومبرأة روسية.

وأضيف لهذا الثنائي طرف ثالث هو إيران ليصبح مثلاً زواياه مختلفة.

نجح هذا المثلث في عقد مؤتمر سوتشي في كانون ثاني 2018، وكان من أبرز مخرجاته الاتفاق على تأسيس لجنة دستورية تعد دستوراً جديداً للبلاد، ودعوة لانتخابات رئاسية وبرلمانية، وانتخابات للإدارات المحلية بديمقراطية ونزاهة وحسب الدستور الجديد، وستطلق هذه اللجنة خلال الشهر القادم (آب 2019) أو الذي يليه على أبعد تقدير.

لكن ينبغي أن نسأل هل هذا يعني انفكاك العلاقة بين الولايات المتحدة وتركيا؟

من الصعب جداً قطع العلاقات بين البلدين، إن لم يكن مستحيلاً، فروسيا لا تستطيع تعويض الفراغ الأميركي لدى تركيا، والعكس صحيح. لهذا علينا أن نذكّر دائماً أنّ تركيا لم تتوانى يوماً عن تأكيد استعدادها لحوار الولايات المتحدة بغية التوصل لتسوية لا تكون تحت الإذعان والرضوخ وأنّ صفقة الصواريخ (اس_400) التي اشتراها من روسيا كانت بعد طلب شراء منظومات باتريوت لأهداف دفاعية رفضت إدارة الرئيس أوباما بيعها.

ويبقى السؤال الأهم هل تستطيع القوى الإقليمية فرض حل للأزمة السورية على القوى الدولية أو بشكل أدق بعدم تدخل الأميركي مباشر؟



بين ترکة الماضي وتحديات المستقبل

سمير سالم

في بقعة من شرق المتوسط، تقاسم الفرنسيون والبريطانيون ترکة الإمبراطورية العثمانية. وفي سنة 1920 أعلن الجنرال "غورو" قيام دولة "لبنان الكبير" وقد جيشه إلى دمشق، وكان من الطبيعي أن تنشأ علاقات اقتصادية وسياسية بين هذين الكيانين. فمن بعيد تبدو الأرضي اللبنانية بمثابة خاصرة بحرية لسوريا، وتلقي المسارات التاريخية لهاتين الدولتين في العديد من النقاط. الدولتان اللتان قسمتهما "سايكس بيكو"، وبمؤسسات مشتركة بقىت لفترة من الزمان مثل بنك سوريا ولبنان، والذي حمل هذا الاسم لفترة تجاوزت استقلال البلدين.

وارتبطت العلاقة بين الشقيقتين بالكثير من القصص التي يمكنك أن تسمع نسخاً عديدة ومتعددة منها، إلا أنها وعبر التاريخ الحديث تشكلت في المخيلة السياسية عبر عدد من الأحداث البارزة، التي صنعت التاريخ السياسي للعلاقة بين البلدين. لعل أكثر حادث تاريخي تجلّى فيه نوع العلاقة بين البلدين هو حين انفجر الوضع الداخلي في لبنان إثر محاولة الرئيس "كميل شمعون" الدخول في تحالف مع الغرب عام 1958 بعد فشل العدوان الثلاثي على مصر عام 1956. ولم تنته الأزمة إلا بعد تدخل الرئيس "جمال عبد الناصر" سياسياً مما أدى إلى حلول "فؤاد شهاب" محل الرئيس "كميل شمعون". وتم التوصل إلى اتفاق يمنح لبنان الحرية الكاملة كدولة مستقلة في الداخل اللبناني، أما فيما يتعلق بسياسته الخارجية فإنه لا يجوز للسلطة اللبنانية اتخاذ القرار إلا بعد التنسيق المسبق مع "الجمهورية العربية المتحدة". تجلّى في هذه الحادثة التاريخية النظرة الإقليمية إلى لبنان بوصفه خاصرة قاصرة لسوريا.

"الأخ الأكبر" الغريب:

دائماً ما اعتبرت سوريا بمثابة الشقيقة الكبرى للبنان، وذلك بحكم الجغرافيا، وفي رواية "جورج أوروول" الشهيرة "1984" يستخدم "أوروول" مصطلح "الأخ الأكبر" برمزية الخوف من الدولة الأمنية، "الأخ الأكبر" يرافق، في حكايتها هذه تحولت الشقيقة الكبرى إلى "الأخ الأكبر"، فلا يمكننا تناول العلاقات السورية – اللبنانية دون التطرق إلى حقبة أساسية من تاريخ لبنان، وهي حقبة الدخول السوري إلى لبنان والتي استمرت منذ سنة 1976 وحتى 2005 بعد اغتيال رئيس الوزراء "رفيق الحريري"، وخلال هذه السنوات شهدت السياسة اللبنانية والدور السوري نفسه العديد من التحولات، فبعد التدخل عام 1976 تحت غطاء "قوات الردع" ليقاف الحرب الأهلية، تحول الدور السوري باتجاه ضبط القوى المتصارعة، وتجريد الميليشيات من سلاحها، ومن كان يرتدي اللباس العسكري من أمراء الحرب والطوائف البارحة صاروا رجال برلمانيين يرتدون البدل الرسمية.

ولم يكن التدخل السوري في لبنان يهدف فعلياً إلى تمكين أحد الأطراف المتناقلة من السيطرة على الساحة السياسية أو العسكرية على حساب الأطراف الأخرى، فنفس القوات التي قصفت "بيروت الشرقية" كانت إلى جانب الميليشيات المسيحية في "تل الزعتر"، وأصبح الدور السوري هو حجر الأساس في السياسة اللبنانية، وتمثل ذلك بنمذجين بارزين هما اللواء "غازي كنعان" الذي مات في ظروف غامضة بعد أشهر قليلة من اغتيال الحريري، وخلفه اللواء "رسم غزاله"، ويتحدّث معارضو الوجود السوري عن دورهما بصفتهما حاكماً لبنان الفعليين في فترة الوجود السوري، وبالتالي تشكّلت حالة من العداء للوجود السوري وخصوصاً في الشارع المسيحي الذي عَدَّ قسم كبير منه نفسه أكبر الخاسرين جراء "وثيقة الوفاق الوطني اللبناني" عام 1989 - المعروفة بـ "اتفاق الطائف" - الذي كان فعلياً حصيلة اتفاق



أميركي - سوري - سعودي. فبعد أن كان "بشير" يصفهم بـ"قديسو هذا الشرق وشياطينه"، وما تبع ذلك من نفي لـ"ميشال عون" ومحاسبة "سمير جعجع" وحده دون الكثير من أمراء الحرب، عزز هذا المشهد كلّه الشعور بالاضطهاد لدى قسم كبير من الشارع المسيحي، الذي شعر أنه المستهدف دون غيره. فيما كان أكبر الرابيحين من هذه التغيرات هو رئيس الوزراء "رفيق الحريري" الذي صعد إلى واجهة المشهد الاقتصادي والسياسي في الفترة الممتدة من نهايات الثمانينيات إلى اغتياله عام 2005.

تكرّس العداء للوجود السوري في لبنان وظهر إلى العلن بحدة أكبر وشمل شريحة أكبر من الشارع اللبناني بعد عام 2005. وحين ننتذكر أحد أكثر المشاهد تأثيراً في تاريخ المنطقة في مخيّلتنا السياسية خلال العقد الأول من القرن الواحد والعشرين، يظهر أمامنا شريط بصريّ للأحداث التي توالت بسرعة كبيرة في عام 2005. ابتداءً بالسيارات المحترقة في مشهد من السحب الرمادية في يوم 14 شباط اليوم الذي شهد اغتيال رئيس الوزراء رفيق الحريري، حتى الحشود التي كانت تظهر في أيدي بعضهم صور الرئيس السوري بشار الأسد بين أعلام لبنان في تظاهرة 8 آذار التي دعت إليها بعض القوى اللبنانيّة وأليرزها حزب الله لشكّر الدولة السورية على ما قدمته للبنان، في مقابل الرد بعد بضعة أيام بحشود كانت تتدّي بضرورة رحيل القوات السورية فوراً عن أراضي لبنان في 14 آذار، وصولاً إلى مشاهد باصات الجيش السوري تنسحب خارج الأراضي اللبنانيّة وال العسكر يرفعون إشارات النصر ويلوحون للكاميرات التي تصوّرهم في أواخر شهر نيسان عام 2005.

ليلة سقوط الملك:

ومع بداية الأزمة السورية سنة 2011، كان الأمر بالنسبة للمخيلة السياسية للكثير من القوى بمثابة انكسار صنم القوة. لذلك استغلت القوى المعارضه للنظام السوري في لبنان الفرصة، للدعوة لإسقاط النظام وفق النموذجين "المصري" و"التونسي" أولاً، ثم النموذج "الليبي" تاليًا، وظهر بشكل جليّ شرخ واضح في الشارع اللبناني تجاه القضية السورية. فمن جهة أولى بدا أنّ حزب الله وحلفائه يقونون بنسق متقاولة إلى جانب بقاء الدولة السورية بوصفها "سند المقاومة"، ومن جهة أخرى كانت كلمة رئيس حزب "القوات اللبنانيّة" تثير الكثير من الصخب بقوله: فليحكم الإخوان وإن كان ذلك من باب اجتناء لما قاله، إلا أنّ أحداً لم يتخيل أن يصرّح قائد القوات اللبنانيّة التي يعرف الجميع تراثها الحربي والتلفافي بكلمات كهذه. لم يكن سمير جعجع عالماً أساسياً في الأزمة السورية بالطبع، بل هو كغيره من القوى السياسيّة اللبنانيّة بقيّ في موقعه الأساسيّ، وبنى موقفه من "الربيع العربي" والأزمة السورية على معيار وحيد هو مثنيّة العداء/التأييد للنظام السوري.

ازدادت حدة المشهد مع مرور سنوات الأزمة، بتأسيس مشهدين إضافيين هما: تدخل "حزب الله" عسكرياً في الأزمة السورية، والتزوح السوري إلى الأراضي اللبنانيّة. لم يتوقف إداً الدعم عند الخطاب الإعلامي، شعرت الكثير من القوى اللبنانيّة أنّ الأزمة السورية هي ميدانها الطبيعي، فتوجّهت القوافل المسلحة، والأفراد المتحمسون، إلى ساحات قتال جديدة، يعتبرون أنفسهم فيها جزءاً من اللعبة الكبرى التي تجري في أراضي سوريا.

وتحول ملف اللجوء السوري إلى ورقة سياسية بامتياز، بعد تجريدها من أيّ بعد غير سياسي. أصبحت مسألة النازحين بمثابة ورقة للضغط باتجاهين مختلفين، أحدهما استخدام النازحين كورقة ضغط على النظام السوري، وآخر التسويق مع النظام لعودة اللاجئين قسرياً.

ليبدو الوضع ميدانياً مختلفاً عما اعتادت أن تكون عليه العلاقات بين البلدين. فتكسرت رمزية "الأخ الأكبر" إلى حد كبير، ليصبح الوضع مقلوباً إلى حد ما. ولأول مرة كانت نقاط العبور الحدودية مزدحمة باتجاه بيروت وليس باتجاه دمشق. وبعد أن كان الوجود السوري هو المحور الأساسي في السياسة اللبنانيّة لفترة ليست قصيرة عند مقارنتها بتاريخ البلدين بعد الاستقلال، أصبحت أطراف الأزمة السورية تستعين بأشقائهما إن كان على المستوى العسكري وعلى المستوى السياسي، لتحاول أن تفرض سيطرتها على أرض المعارض أو حتى خارجها.



احتمالات:

يبعد اليوم أنّ نعمة أو نعمة الشقيقين مستمرة في مسارها في التاريخ، بحكم العديد من الارتباطات المستقبلية الحتمية، والأزمات الحياتية المشتركة التي تلغى أي شعور بالعداء بين الشعبين أو الحكومتين مستقبلاً. وتنبع احتمالات العلاقات السورية - اللبنانيّة بالتسوية الدوليّة التي تنتظر الأزمة السوريّة، والتي سيكون لها تأثيراً كبيراً على السياسات اللبنانيّة سواءً الحزبيّة أو الدوليّة من خلال تعامل الدولة اللبنانيّة مع ملفّ اللجوء السوري، الذي يبدو حتى الساعة ملفاً عالقاً في وسط التجاذبات السياسيّة، بين طرّابين أحدهما يتعامل معه بوصفه قضية إنسانية تشكّل إزعاجاً للنظام مع رفض أي قنوات دبلوماسيّة مع النظام السوري، والخطاب المقابل يتعامل مع اللاجئين وفق مبدأ ضرورة عودتهم إلى سوريا بعد التفاوض مع النظام على آلية رجوع اللاجئين. وفي ظلّ سوء وترديّ الوضع الاقتصادي في الداخل اللبناني وانتشار خطاب الكراهية ضدّ اللاجئين المرتبط بالخطاب الشوفيني الشعبي عند شخصيات مؤثرة في الشارع اللبناني - أبرزها وزير الخارجية "جبران باسيل" -، وقلة فرص العمل وازدياد الطلب على المواد الرئيسيّة، والخوف المستمر عند بعض اللاجئين من عواقب العودة إلى الداخل السوري، يشعر العديد منهم وكأنّ لا مكان لهم على هذه الأرض.

وإلى جانب انتظار حلّ ملف النازحين السوريين، وغيرها من الملفات المرتبطة بالأزمة السوريّة والتي تلقى بثقلها على الواقع الاقتصادي في لبنان يبدو أنّ هناك اتجاه في لبنان إلى انتظار تسويات ما بعد الحرب حتى تسنح الفرصة لبعض الشخصيات المقربة من السلطة للمشاركة في إعادة الإعمار أو غيرها من الملفات التي قد تعود بالفائدة المادية عليها، حتى وإن كانت بعض هذه الشخصيات تبث طوال الوقت خطاب الكراهية ضدّ اللاجئين السوريين في لبنان، أو تستخدم ورقة اللاجئين للحصول على مساعدات دولية، في صورة يتجلّى فيها تماماً أنّ رأس المال لا يعترف بأي فوارق أيديولوجية أو سياسية.

بالتأكيد يبدو أنّ قدر الشعبين كما كان مشتركاً ومتقاطعاً في العديد من صفحاته، سيقى كذلك، فإنّ التحول السوري إلى نظام يؤمن بمفاهيم المواطنة والسيادة سيشكّل مكملاً لكلا البلدين، وسيفكّ الصورة الشبه بطريركية في العلاقة بين البلدين، والخوف كلّ الخوف من أن يتحول البلدين إلى بلاد تحكمها السفارات، وتقرّر لهما اليوم والغد.

مقططف من مقال "راهنية أفكار ماركس" لـ "آلان وودز"

البيان الشيوعي:

الأغلبية الساحقة من الكتب التي كتبت منذ قرن ونصف لم يعد لها اليوم سوى أهمية تاريخية فقط. لكن الميزة الأكثر إثارة للدهشة للبيان الشيوعي هي الطريقة التي تقعّ بها أكثر الظواهر الأساسية التي تشغّل اهتمامنا على الصعيد العالمي في الوقت الحاضر. من العجيب حقاً أنّ تعتقد أنّ كتاباً ألف سنة 1847 يمكنه أن يقدم صورة لعالم القرن 21 بوضوح وبصدق. في حقيقة الأمر إنّ البيان الشيوعي هو أصدق اليوم مما كان عليه عندما ظهر لأول مرة في عام 1848.

دعونا ننظر إلى مثال واحد. في الوقت الذي كان ماركس وإنجلز يكتّبان البيان، كان عالم الشركات متعددة الجنسيات الكبيرة مجرّد صدى لمستقبل بعيد جداً. لكنهما، على الرغم من ذلك، شرحاً كيف أن المشاريع الحرة والمنافسة من شأنها أن تؤدي حتماً إلى تركيز رأس المال واحتكار القوى المنتجة. من المضحك أنّ نقرأ التصريحات التي أدلّى بها المدافعون عن السوق بشأن خطأ ماركس المزعوم بخصوص هذه المسألة، بينما هي بالضبط في واقع الأمر واحدة من أربع توقعاته وأدقها.

خلال الثمانينيات كان من المؤلّف أنّ نسمع أنّ كلّ صغير جميل. ليس هذا هو المكان المناسب للدخول في نقاش حول الجماليات النسبية للأحجام الصغيرة أو الكبيرة، والتي يحقّ لكلّ شخص أن يتبّنى رأيه بخصوصها. إلا أنّ



الحقيقة التي لا جدال فيها على الإطلاق هي أنَّ عملية تركيز رأس المال التي توقعَ ماركس حدوثها، قد حدثت وتحدث، وقد وصلت بالفعل خلال السنوات العشر الماضية إلى مستويات لم يسبق لها مثيل.

في الولايات المتحدة، حيث يمكن رؤية العملية بوضوح خاص، شكلت ثروة 500 شركة 73,5% من كل الناتج الوطني الإجمالي في عام 2010. وإذا أقامت هذه الشركات الخمسينية بلداً مستقلاً، فإنها ستكون ثاني أكبر اقتصاد في العالم، حيث ستأتي في المرتبة الثانية بعد الولايات المتحدة الأمريكية نفسها. في عام 2011، حققت هذه الخمسينية شركة أرباحاً قياسية بلغت 824,5 مليار دولار، بمعدل ارتفاع بلغ 16% مقارنة مع عام 2010. وعلى الصعيد العالمي تحقق 2000 أكبر شركة في العالم إيرادات بـ 32 تريليون دولار، وأرباحاً بـ 4,2 تريليون دولار، وتمتلك أصولاً تبلغ قيمتها 138 تريليون دولار، مع ارتفاع أرباح مذهل يساوي 67% بين عامي 2010 و2011.

عندما كتب ماركس وانجلز البيان الشيوعي، لم تكن هناك أدلة تجريبية على كلامهما. إذ على العكس من ذلك، كانت الرأسمالية آنذاك تستند كليةً على الشركات الصغيرة، والسوق الحرّة والمنافسة. أما اليوم فتتيمّن على اقتصاد العالم الرأسمالي بأكمله حفنة من الاحتكارات العملاقة العابرة للحدود الوطنية مثل "إكسون ووول مارت". تمتلك هذه الشركات العلاقة أمواًلاً تتجاوز بكثير الميزانيات الوطنية للعديد من البلدان. لقد تحقّقت تنبؤات البيان الشيوعي بشكل كامل وأكثر وضوحاً حتّى ممّا كان ماركس نفسه يتصرّر.

لا يمكن للمدافعين عن الرأسمالية أن يغفرو لماركس لأنَّه، في الوقت الذي كانت الرأسمالية في مرحلة شبابها، كان قادرًا على التنبؤ بأسباب انحطاطها الكامل. لقد عملوا بشدة طيلة عقود على نفي توقعاته حول السيرورة الحتمية لتركيز الرأس المال والقضاء على الشركات الصغيرة من قبل الاحتكارات الكبيرة.

لقد وصلت عملية تمركز وتركيز الرأس المال معدلات لم يكن من الممكن تخيلها قبل الآن. وقد اكتسب عدد عمليات استيلاء الشركات الكبرى على بعضها طابع وباء في جميع البلدان الصناعية المتقدمة. في كثير من الحالات ترتبط عمليات الاستيلاء هذه ارتباطاً وثيقاً بكل أنواع الممارسات الإجرامية، كالتوطئات وتزوير أسعار الأسهم وغيرها من أنواع الغش والسرقة والنصب، كما ظهر في قضيّة التلاعب في سعر فاندة قروض ليبور من طرف "بنك باركليز"، وغيرها من البنوك الكبرى. لا يعني هذا التزايد في تمركز الرأس المال تزايداً في نمو الإنتاج، بل على العكس تماماً. ففي كل مرة لا يكون القصد من ذلك هو الاستثمار في بناء مصانع جديدة وشراء آلات جديدة، بل هو إغلاق المصانع والإدارات الموجودة وطرد أعداد كبيرة من العمال من أجل رفع هامش الربح دون زيادة الإنتاج. ولنأخذ مثلاً عن ذلك لننظر فقط إلى عملية الاندماج الأخيرة بين اثنين من البنوك السويسرية الكبيرة، والتي تلاها مباشرة فقدان 13.000 وظيفة.

العلومة وانعدام المساواة:

دعونا ننتقل إلى التنبؤ الهام الآخر الذي قام به ماركس. لقد أوضح ماركس منذ عام 1847 أنَّ تطُور سوق عالمية سيجعل "من المستحيل كل ضيق أفق وفردانية قومية. إن كل البلدان، حتى أكبرها وأقواها، هي الآن تابعة تماماً للاقتصاد العالمي ككل، والذي يقرر مصير الشعوب والأمم" (البيان الشيوعي). إن هذا التوقع النظري الباهر يبيّن، أفضل من أي شيء آخر، التفوق الهائل للمنهج الماركسي.

ينظر إلى العولمة عموماً باعتبارها ظاهرة جديدة. إلا أنَّ البيان الشيوعي توقعَ منذ فترة طويلة ميل الرأسمالية نحو إنشاء سوق عالمية واحدة. إن الهيمنة الساحقة للسوق العالمية تمثل الآن الحقيقة الأكثر حسماً في عصرنا. وقد أثبتت التّصاعد الهائل للتقسيم العالمي للعمل منذ الحرب العالمية الثانية صحة تحليل ماركس بطريقة ملموسة.



لكن على الرغم من ذلك، بذلت جهود مضنية لإثبات أن ماركس كان مخطئاً عندما تحدث عن تركيز الرأسمال، وبالتالي سيرورة الاستقطاب بين الطبقات. إنَّ هذه المحاولات تتوافق مع حنين البرجوازية لإعادة اكتشاف العصر الذهبي للمنافسة الحرة. مثلاً يحن عجوز يحضر لأيام شبابه البائدة.

للأسف ليست هناك أدنى فرصة للرأسمالية في أنَّ تستعيد شبابها. فقد دخلت منذ فترة طويلة مرحلتها النهائية: مرحلة الرأسمالية الاحتكارية. وقد صارت أيام المشاريع الصغرى، بالرغم من حنين البرجوازية، جزءاً من الماضي. ففي جميع البلدان صارت الشركات الاحتكارية الكبرى، المرتبطة بشكل وثيق بالبنوك والمدمنة بالدولة البرجوازية، تهيمن على حياة المجتمع. وتواصل سيرورة الاستقطاب بين الطبقات حركتها دون انقطاع، بل وتميل إلى التسارع.

دعونا نأخذ الوضع في الولايات المتحدة الأمريكية: يمتلك 400 أغنى عائلة في الولايات المتحدة ثروة تعادل ما يمتلكه 50% من السكان المتواجدون في قاع الهرم. ويمتلك أصحاب شركة "وول مارت" الستة وحدهم أكثر مما يمتلكه 30% من الأميركيين المتواجدين في قاع الهرم مجتمعين. يمتلك أفراد 50% من الأميركيين فقط 2,5% من ثروة البلاد. بينما رفع أغنى 1% من سكان الولايات المتحدة حصتهم من الدخل القومي من 17,6% في عام 1978 إلى 37,1% في عام 2011.

خلال السنوات الثلاثين الماضية اتسعت باطراد الفجوة بين مداخيل الأغنياء ومداخيل الفقراء حتى صارت هوة شاسعة. في الغرب المتقدم يمثل متوسط دخل أغنى عشرة في المائة من السكان حوالي تسعه أضعاف متوسط دخل أفراد عشرة في المائة. هذا فرق هائل. وبين الأرقام التي نشرتها منظمة التعاون والتنمية أنَّ التباين الذي بدأ في الولايات المتحدة الأميركيَّة وبريطانيا قد امتد إلى بلدان مثل الدنمارك وألمانيا والسويد، والتي كانت تقليدياً مظاهراً عدم المساواة فيها منخفضة.

لقد صارت ثروات أصحاب البنوك الفاحشة الآن فضيحة على كل لسان. لكن هذه الظاهرة لا تقتصر على القطاع المالي. في الكثير من الحالات، يتقاضى مدراء الشركات الكبيرة أجرة تزيد 200 مرة أكثر مما يتلقاها عمالها الأقل أجرًا. وقد تسبب هذا التفاوت الهائل بالفعل في استياء متزايد، تحول إلى غضب يمتد إلى الشوارع في جميع البلدان الواحدة منها تلو الأخرى. وينعكس التوتر المتزايد في تصاعد الإضرابات والإضرابات العامة والمظاهرات وأعمال الشغب. وينعكس ذلك كذلك في الانتخابات من خلال التصويت العقابي ضد الحكومات وجميع الأحزاب القائمة، كما رأينا مؤخرًا في الانتخابات العامة الإيطالية.

أظهر استطلاع للرأي أجرته مجلة "التايمز" أنَّ 54% من المستجيبين لديهم رأي إيجابي عن حركة احتلال الساحات، وأنَّ 79% من المستجيبين يعتقدون أنَّ الفجوة بين الأغنياء والفقراء قد اتسعت إلى درجة كبيرة جدًا، ويرى 71% أنه يجب محكمة الرؤساء التنفيذيين للمؤسسات المالية، وقال 668% إنَّ الأغنياء يجب أن يدفعوا المزيد من الضرائب، وفقط 27% من المستجيبين لديهم رأي إيجابي عن حزب الشاي (مقابل 33% لديهم رأي سلبي عنه). بطبيعة الحال، من السابق لأوانه الحديث عن ثورة في الولايات المتحدة الأمريكية، لكن من الواضح أنَّ أزمة الرأسمالية تنتج مزاجاً متزايداً من الانتقادات بين فئات واسعة من السكان. بدأنا نشهد سخطاً ضد الرأسمالية ومسائلة لها لم نكن نشهد لها من قبل.



شخصيات ماركسية:

"نايف بلوز" الماركسي المختلف (1998-1931)

الهيثم العطوانى

أنَّه من أوائل الشيوعيين السوريين الذين اتَّسُموا بثقافة موسوعية وامتلكوا منهجاً نقدياً متطوراً نفوا من خلاله سياسة الحزب، داخلياً وخارجياً، وموافقه من مجلم القضايا الملحة آنذاك، كما أنه من الأوائل الذين انتقدوا "عبادة الفرد". لقد كان يحاضر في جامعة دمشق بكل ثقة دون القراءة من أي كتاب، وكان أستاذًا متميزاً مختلفاً على صعيد المعرفة والسلوك، وكان له الدور البارز في تشكيل الوعي الفلسفى لجيل من الأساتذة والطلاب، وهو من الأوائل الذين أدخلوا المنهج الجدلي الماركسي إلى قسم الفلسفة، جامعة دمشق، دون أيَّة نزعات أيديولوجية شيوعية، وكان يسخر مما كان يسميهها (النَّزَعَةُ التَّخْطِيطِيَّةُ لِلْمَنْهَجِ الْمَارْكَسِيِّ الْمَتَدَوَّلِ)، وكان نهماً لقراءة ومقلاً جداً بالكتاب، إنَّ مسيرته تشبه مسيرة الفلسفه الكبار الذين لم تستوعبهم أحزابهم، مثل الياس مرقص، وروجيه غارودي وهنري لوفيفر.. وغيرهم الذين طردوها من أحزابهم الشيوعية نظراً لسعة أفهامهم المعرفية والفلسفية والعلمية والتي لا يمكن أن تتكيف مع الأطر الضيقه للأحزاب الأيديولوجية ولا لأى أيديولوجية دوغمائية.

درس في ألمانيا في مطلع السبعينيات من القرن الماضي، وأنجز أطروحة الدكتوراه في الفلسفة في (جامعة هومبولت)، وهي بعنوان "الإسلام ونسائه وفرقه ومدارسه" مهتماً بالمرحلة الأولى من الإسلام، حيث كانت تقسم بالحيوية، قبل مرحلة التقديس والانقسامات، مستخدماً المنهج الماركسي بمرونته من أجل قراءة التراث العربي الإسلامي عبر تطوراته التاريخية، معتقداً أنَّ الإسلام جاء ضمن الظروف الموضوعية التاريخية في وقته الطبيعي، وحين ظهر الإسلام في مجتمع الجاهلية العربية في أوائل القرن السابع الميلادي، لم يظهر بشكل مفاجئ منقطع الأسباب والصلات عمَّا كان يعتمل في حياة تلك الجاهلية، أو كما كان يتحرَّك في ذلك المجتمع بشكل ظاهرات اقتصادية واجتماعية ودينية وبيانية، شعر، خطب، وقد آن الأوان كي يتغيَّر ذلك المجتمع القبلي من الأساس، وكانت تلك الظاهرات، إيدانًا بالأمر المنتظر الذي سيخرج من رحم الواقع الجاهلي نفسه، لينطلق نحو العالم كله خارج شبه الجزيرة العربية، ومن هنا لم تكن المفاجأة التي حدثت، بظهور الإسلام، والتي لم تقتصر على صعيد شبه الجزيرة العربية فقط، وإنَّ ما حدث، شَكَّ افتتاحاً وافتراقاً لأسس النظام القبلي البدائي الذي يعيش في ظله مجموعة من قبائل مبعثرة، وأنَّ هذا التبعثر القبلي سيتحول بحكم الضرورة الموضوعية إلى كيان آخر مختلف كلياً، أي إلى زمن يتأطر فيه عرب الجزيرة بإطار من التَّوْحِيد يجمعهم نواة الشعب العربي أو يشكل إرهاصاً لأمة عربية، بهذا المعنى كان يرى أنَّ الإسلام الأول في سياقه التاريخي شَكَّ نقلة نوعية تقدمية في تاريخ الفكر الديني، ومن خلال روبيته المنهجية النقدية كان . بلوز يرى ، العمق الثوري للإسلام وهو ينطلق انطلاقته الكونية، منذ أربعة عشر قرناً، مستجبياً للظروف التاريخية لحاجة أهل الجاهلية العرب، في شبه الجزيرة إلى ذلك التحول الكبير.

كان يعتقد أنَّ الإسلام في عصرنا لا يمكن أن يقدم أوجبة على التساؤلات التي يطرحها هذا العصر، ولا يمكن أن يكون هو الحل، للقضايا الشائكة المعقّدة التي تواجه الإنسان المعاصر، ربما نستطيع تكثيف مأثرته في المحاور: السياسي والمعرفي والعلمي الأكاديمي، من خلال منهجه النقدي، المفعم بطرح التساؤلات والشك في كل شيء، في زمن -عبادة الفرد- والاستكناة إلى ما يبديه حفائق نهائية، وكان موقفه نقدياً من الفكر والفلسفة والدين، وحتى من نفسه، حيث كان ناقداً لاذعاً، وقد قدم دراسة نقدية عالية الأهمية لكتاب حسين مروة "النزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية" حيث كان يتساءل دوماً، بعد قراءته لذلك الكتاب، عن مدى "حيازة التقديرين العرب لكتفاعة نظرية وحرية في التحرك ورحابة



في الرؤية تسمح لهم بوضع منجزاتهم الفكرية ولاسيما ما يدور منها على قضايا التاريخ الإسلامي. والحاضر العربي موضع التحليل والنقد العلميين". وهو يرى ضرورة مواجهة الصعوبات النظرية والسياسية مواجهة صريحة غير عابنة بشيء سوى مقتضيات الدقة العلمية ومطلب الحقيقة المضيئة للفكر والعلم، وإن هذه المراجعة النقدية البناءة التقدمية، وهذا الانصباب على الذات ليس أمراً مرغوباً فحسب بل إنّ حاجة ضرورية على المستوى الفكري والسياسي، وقد يكون المستقبل مرتهناً لدرجة إسهام كل من السجال النظري الديمقراطي، والافتتاح الحي على الواقع، في صنع الوعي التتوري وصياغة الاستراتيجية العربية التقدمية، بهذه الرؤى، احتلّ بلوز موقعه المتميز بين المفكرين العرب، من خلال سعيه إلى ربط الفكر بالسياسة، وربطهما معاً بالواقع، عقلنة الفكر العربي وتحديثه من أجل عقلنة السياسة العربية وتحديثها، من أجل عقلنة المجتمع العربي وتحديثه مؤكداً على الدور النقي التجددي للفلسفة كي تكون بديلاً عن النظريات التقليدية التي تسعى لفهم الواقع وامتلاكه معرفياً فقط، بينما المطلوب هو تغيير هذا الواقع، ومن هذا المنظور النقي فرأى العلاقة التي تربط جدل هيغل وجدل ماركس، معتقداً أنّ نظرية ماركس الاجتماعية ليست منفصلة عن فلسفة التاريخ الهيغلي. ومفردات العقل والحرية والتقدّم تدلّ على وجود التقطّعات بينهما، فالفكرة القائلة بأنّ التاريخ العالمي له علاقة بتوغل الحرية والعقل وتطور البشرية يمكن أن تلمح لها درجة من الترابط بين ماركس وهيغل، وقد نستطيع القول إنّ الفيلسوفين يؤكّدان على أنّ العقل يسود العالم في النهاية، وإن بأشكال مختلفة، هيغل يدع العقل والحرية يحدّدان العملية التاريخية، لكن ماركس يعتقد وحده أنّ قضاء البروليتاريا على البرجوازية يمكن أن يفهم بمثابة انتصار العقل على الاعقل والظلم في العلاقات الاقتصادية - الاجتماعية".

وقد كان بلوز يلحّ على الأهمية الخاصة للنشاط النقي في دراسة النصوص ودراسة الواقع، خصوصاً في تناوله النقي للنصوص الماركسيّة، فمن المعروف أنّ التأويلات الماركسيّة في الواقع العربي يمكن إجمالها في مسارين، تمثّل المسار الأول في النزعة الميكانيكية التي تمظهرت من خلال التأكيد الحاسم لدور البنى التحتية (الاقتصادية)، وينظر إلى التاريخ على أنه تقدّم مطلق لا مكان للإنسان فيه، لأنّ الاقتصاد هو المحرّك الأساسي للتاريخ، بحسب هذا المنظور. والمسار الثاني يتمثّل في النزعة الإرادوية، تلك التي تجعل من إرادة الإنسان محرّكاً للتاريخ. وقد سعى بلوز من خلال منظوره النقي إلى تجاوز ثنائية الاقتصادية والإرادوية، وإلى الكشف عن علمية النظرية الماركسيّة بوصفها منهجاً للبحث وعبر تميّزها عن الفلسفات الميتافيزيقية، المثالية الأخرى، وأراد أن يؤكّد تميّز الماركسيّة بوصفها علمًا، وهذا ما بدا واضحاً في كتابيه مناهج البحث في العلوم الاجتماعية، ومناهج البحث في العلوم الطبيعية، إضافة إلى كتابه، علم الجمال، الذي قدّم فيه محاضرات من كتابه المترجم لجورج لوكانش عن الألمانية (دراسات في الواقعية 1972).

وقد كان يطرح السؤال ما أهمية المنهج الماركسي، وماذا يمكن أن يقدم اليوم لليسار، وكان يظن أنّ الفكر الماركسي لا يزال محافظاً على طموح الشباب وقوتهم الحاسمة ولا يزال يمتلك حيوية وقدرة كبيرة على الإلهام والسعى للتغيير، وإن هذا الفكر ينطوي على حافر يهيب بنا أن نواجه مشاكل عصرنا كما واجه ماركس مشاكل عصره، حيث أن دور ماركس يتضمّن منهجاً عاماً يمكن خلف المشكلات المعالجة ورؤيا نظرية توجه أسلوب معالجة هذه المشكلات. إن المشاكل المثلثة اليوم هي التي يمكن أن نسترشد بالمنهج المادي الجدي من أجل معالجتها بروح الماركسيّة المعاصرة (ويمكن اعتبار الماركسيّة اليوم موقفاً معاصرًا للثقافة الأوروبيّة المحدثة)، وقد تكون عودة ماركس بقوّة الآن إلى المسرح التفافي العالمي مؤشّراً على موقف نقي من الرأسمالية المعاصرة.

انطلاقاً من رؤاه السابقة جعل من الواقع السوري موضوع معرفة منطلاقاً من علاقة الفكر بالواقع، زاعماً أنّ هذه العلاقة ليست ذاتية فحسب، بل هي علاقة دialectique بين الذات والموضوع، وقد سعى إلى تفكير مقولات ترسّخت في الثقافة السورية، ورؤانا الفلسفية والسياسية، من أجل النهوض بالمجتمع عبر كل مؤسساته وجماعاته من خلال التتوري والنقد، ورأى أن الكتابات الماركسيّة الدوغمائية مقولات روج لها على أنها تقدمية ومحابية لروح العصر، بينما التمحيص الدقيق لها يكشف أنها أيديولوجية جامدة، تدعم سلطة النص المدافع عنه على حساب الفهم النقي والمثمر للنص وللواقع، فالأساس النظري الذي انطلق منه بلوز هو المفاهيم الماركسيّة التي أعاد إنتاجها وأنتجها بوصفها أدوات بحثية، فتحوّلت لديه إلى دليل يكشف من خلاله، تجدد المفاهيم، ومنطق حركة التاريخ ومحاولة الإجابة على أسئلة الواقع المتقدّدة



والمتجدد أبداً، كما أنه كان يعتقد أنَّ ماركس في رؤيته لم يكن يهدف إلَى تحقيق حرية الإنسان، وهذا الهاجس نفسه هاجس بلوز، وانعاقه من عبودية العمل، وجعله حقاً من حقوقه لا فرضاً عليه.

المصدر: <https://www.jadaliyya.com/Details/38733>

وثيقة نظرية حول الإمبريالية الجديدة

تجمع اليسار الماركسي في سوريا

الحوار المتمدن - العدد: 3202 - 1 / 12 / 2010

(إعداد لجنة الدراسات في تجمع اليسار الماركسي في سوريا / تيم/)

١- الإمبريالية: عودة إلى توضيح المفهوم ، كمفهوم اقتصادي/ سياسي

مع نهاية عقد الثمانينات من القرن العشرين بدأ يظهر في الأوساط الثقافية التي تشرف عليها وتديرها المؤسسات الثقافية الإمبريالية مفهوم جديد هو "العولمة" ليشير به أصحابه ومتلقيه إلى مرحلة اقتصادية جديدة في الرأسمالية تتجاوز الإمبريالية . وقد انقضى عقد التسعينات من القرن الماضي ومفهوم "العولمة" ما يزال يتداول بشكل بدهي بالرغم من غزارة الأدب الاقتصادي/ السياسي الجاري حوله.

لقد أزيل مفهوم الإمبريالية من التداول ، لا بل تجراً بعض الكتاب العرب (اللبيراليين حالياً والماركسيين سابقاً) على وصف الرأسمالية بأنها مع العولمة والدعوات "الديمقراطية" الأمريكية ، ومع التدخل العسكري الإنساني لمؤازرة الأقليات القومية والعرقية والطائفية ، باتت تتخلص من النزعة الإمبريالية وتميل إلى نزعة إنسانية. أي باتت تميل للتخلص من الميل إلى الرجعية في السياسة وإلى الإلحاد والضم وإلى السيطرة والغزو وإخضاع الأمم الضعيفة والفقيرة . وقام مفكر عربي "ماركسي" آخر للتبرير في منتصف تسعينات القرن الماضي بقدرة الرأسمالية مع عصر العولمة على تصنيع الأطراف وعلى إلغاء التفاوت في تطور الأمم والدول. وبالتالي باتت الرأسمالية حسب وجهة نظره ميالة للتخلص من النزعة الإمبريالية، وهلم جرا من كل أنواع هذا الهذر الرخيص والفالس.

لكن الظروف التي رجحت كفة مفهوم "العولمة" وغلبته بدأت بالتدور مع كشف النظام الإمبريالي العالمي بقيادة الولايات المتحدة عن وجهه العدائي والرجعي عبر غزو أفغانستان ولاحقاً غزو العراق 2003 واحتلاله. لقد ذاب الثلج تحت وقع القصف الجوي الليبي الإمبريالي البربري لبغداد . وهكذا ظهرت الحاجة لتنفيذ مفهوم "العولمة" ودوره الوظيفي كتمهيد للغزو الإمبريالي مثل مفاهيم عديدة طرحت في نفس الفترة كـ "الديمقراطية الأمريكية" وـ "صراع الحضارات" ، وـ "نهاية التاريخ" ، "المجتمع المدني" كبديل للدولة السياسية، ومفهوم "التدخل العسكري الإنساني" . وهدف ذلك إلى خلق بلبلة فكرية وسياسية في صفوف المناهضين للإمبريالية تمهيداً للغزو وتقبيه. من هنا ضرورة نقد مفهوم العولمة وإعادة التعريف بمفهوم الإمبريالية كمفهوم اقتصادي/ سياسي ومفهوم طبقي.

نشأت الإمبريالية باعتبارها تطوراً واستمراً مباشراً لما فطرت عليه الرأسمالية بوجع عام من خصائص أساسية، فالمزاحمة الحرة والإنتاج البصاعي بوجه عام هي أخص خصائص الرأسمالية. ومع ظهور الإمبريالية في الرأسمالية بات الاحتكار (النقيض المباشر للمزاحمة الحرة) يحل محل المزاحمة الحرة منشئاً الإنتاج الضخم ومزيحاً الإنتاج الأصغر ، حالاً الأضخم محل الضخم.



لا تزيل الاحتكارات المزاحمة الحرية، بل تعيش فوقها وإلى جانبها، خالقة بيئه تهيمن عليها الاحتكارات الدولية العملاقة، ومولدة جملة من التناقضات والاحتكاكات والنزاعات في منتهى الشدة.

لقد دفع تمركز الإنتاج والرأسمال إلى درجة نشأت وتنشأ عنها الاحتكارات الصناعية، دامجة فيها رأسمال حفنة صغيرة من البنوك العملاقة.

الإمبريالية بالمعنى الاقتصادي وبأي جاز هي الرأسمالية في مرحلة الاحتكار، وهذا التعريف يضم الأمر الاقتصادي الرئيسي لأن الرأسمال المالي هو نتيجة اندماج رأسمال حفنة من البنوك الاحتكارية الكبرى برأسمال اتحادات الصناعيين الاحتكاري (كارتيلات، سنديكات، تروستات).

ولكي نقدم فهماً لوجوه الظاهرة جميعها؛ فهاماً للإمبريالية الرأسمالية في حالة تطورها الكامل ينبغي الإشارة إلى الأمور الخمسة التالية:

1- تركز الإنتاج والرأسمال ترکزاً بلغ في علو تطوره درجة نشأت معها الاحتكارات التي تلعب الدور الفاصل في الحياة الاقتصادية.

2- اندماج أو اقتران الرأسمال البنكي مع الصناعي مشكلاً "رأس المال المالي"، ونشوء الطغمة المالية على أساس "الرأسمال المالي" هذا.

3- تصدير الرأسمال وتوظيفه في الخارج، حيث يكتسب هذا التصدير للرأسمال أهمية في منتهى الخطورة. كان تصدير البضائع هو السائد في مرحلة رأسمالية المزاحمة الحرية، ومع صعود رأس المال المالي وظهور الإمبريالية الرأسمالية بات تصدير الرأسمال والتوظيفات المالية في الخارج هو المهيمن، وبات هذا التصدير يشكل التمفصل الحاسم بين الجانب الوطني والجانب الدولي لنشاط رأس المال المالي.

4- تشكل اتحادات رأسماليين احتكاريين تقسيم العالم من أجل السيطرة على مصادر الخامات الأساسية والمواد الأولية الأساسية للصناعة الرأسمالية ومن أجل أسواق التصريف والاستثمار.

5- انتهى تقاسم أقطار الأرض من قبل كبريات الدول الرأسمالية. وسوف تتصارع الدول الإمبريالية الرئيسية عبر حربين عالميتين لإعادة تقسيم ما تم تقسيمه.. وسوف تنتقل عدة بلدان من الشبكة الإمبريالية عبر ثورات اجتماعية كروسيا والصين، وعبر حركات تحرر قومي متفاوتة التجذر والعمق وذلك اعتباراً من نهاية الحرب العالمية الأولى.

كل هذه التعريفات غير كافية للاحاطة بظاهرة الإمبريالية. لذلك يتوجب إعطاء الإمبريالية تعريفات أخرى منها:

1 - علاقة الإمبريالية بالاتجاهين الأساسيين في حركة العمل (الاتجاه الانهاري والاتجاه الثوري). إن الوضع الاقتصادي الذي خلفته الإمبريالية يجعل من الانهارية في حركة الطبقة العاملة في الدول الإمبريالية الرئيسية حالة سائدة، تُصدر بدورها إلى الدول الرأسمالية الطرفية

2- الإمبريالية هي تراكم هائل للرأسمال النقدي في عدد قليل من البلدان . حيث يميل رأس مال البنوك إلى العمل في قطاعين متناقضين : القطاع الأول ، رساميل موظفة في قطاعات "منتجة" (التجارة والصناعة والزراعة). والقطاع الثاني ، رساميل "مضاربة" موظفة في البورصات والعمليات المالية (أسهم، سندات حزينة ، سندات دين ، أوراق مالية ، الخ..). وقد لاحظ لينين ومؤلفون آخرون سابقون (قبل الحرب العالمية الأولى) تعاظم التوظيفات في القطاع المضارب وتفوقها على التوظيفات المنتجة ، حيث تشير هذه الظاهرة إلى بروز الطابع الظفيري للرأسمالية في مرحلتها الإمبريالية .

3- لقد سبق ورأينا أن الاحتكار هو أعمق أساس اقتصادي للإمبريالية وهو احتكار رأسمالي ، أي أنه ناشئ عبر الرأسمالية وقائم ضمن الظروف العامة للرأسمالية وللإنتاج البضاعي والمزاحمة، و ضمن تناقض مع هذه الظروف



العامة دائم لا مخرج منه. لهذا السبب ليس كل احتكار هو إمبريالية ، وليس كل ميل للغزو والعدوان هو إمبريالية .
الإمبريالية هي احتكار في كف علاقات الإنتاج الرأسمالية ، حيث تسيطر الملكية الرأسمالية الخاصة. من هنا فاحتكرات الدولة الصينية الحالية ليست إمبريالية . وميل إيران لنشر أفكار الثورة الإيرانية ذات المظهر الديني ليست إمبريالية .
ومع ذلك فالاحتكار الرأسمالي بكل احتكار يولد الميل إلى الركود والتعفن .

4- مع التراكم الهائل للرأسمال النقدي ولكتلة هائلة من الأوراق المالية في حفنة من الدول الرأسمالية تتمو ب بصورة خارقة فئة من أصحاب المداخل ، أي من الأشخاص الذين يعيشون على "قص الكوبونات" ؛ على استثمار رؤوس أموالهم في الخارج . وهم أشخاص منعزلين تماماً عن الاشتراك في أي مشروع منتج ، أشخاص مهنتهم الفراغ وتصدير الرأسمل وتوظيف الرساميل في الخارج . وهذا الأمر يشكل أساساً من أساس الإمبريالية الاقتصادية الجوهرى ، يشدد لدرجة كبيرة عزلة هؤلاء عن العمليات المنتجة ، ويسم بطبع الطفالية كامل البلد الذي تعيش من استثمار عدد كبير من البلدان ما وراء المحيطات .

5- من خواص الإمبريالية المرتبطة بجملة الظواهر السابقة الذكر انخفاض المهاجرة من البلدان الإمبريالية وازدياد المهاجرة إليها : انتقال العمال ونزوحهم إلى هذه البلدان من بلدان أكثر تأثراً حيث الأجر هناك أكثر انخفاضاً إلى حد كبير .

6- تميل الاحتكارات إلى بيع منتجاتها في الداخل بأسعار احتكارية عالية وفي الخارج بأسعار منخفضة لسحق المنافسين .
وذلك لكي تحقق أكبر قدر من الأرباح . وهذا يبين تهافت "الديمقراطية" الإمبريالية .

7- في الأزمات الرأسمالية يشتد الميل نحو الاندماج ويزداد تدخل الدولة الإمبريالية الرأسمالية ، حيث تهرع هذه الأخيرة إلى مساعدة ونجدة البنوك المفلسة أو المهددة بالإفلاس . حيث يظهر مرة أخرى تهافت "ديمقراطية" الإمبريالية . حيث تأخذ هذه الدولة الرأسمالية من الناخبين الفقراء والمتوسطين ومن المنتجين وتعطي للأثرياء والمضاربين المقامرين بالاقتصاد الوطني والعالمي . هكذا تعيد الدولة الإمبريالية الرأسمالية توزيع الثروة القومية عبر الميزانية العامة والضرائب لصالح حفنة من المضاربين الأثرياء الأفقيين .

8- إن الاحتكارات والطغمة المالية والنزوح إلى السيطرة بدلاً من النزوح إلى الحرية والميل إلى العنف والعسكرة والعدوان والظلم القومي والضم والإلحاق للدول الضعيفة واستثمار عدد متزايد من الأمم الضعيفة والصغيرة من قبل حفنة من الأمم القوية أو الغنية . كل ذلك خلق وخلق السمات السياسية المميزة للإمبريالية التي تحمل على وصفها بالرأسمالية الطففية أو المتعففة . إن كل ما قلناه فيما تقدم عن طبيعة الإمبريالية الاقتصادية/ السياسية يستنتاج أنه لا بد من وصفها بأنها رأسمالية انتقالية ، أو بالأصح محتضرة . وهذه الكلمة الأخيرة إشارة إلى أصول الدور التقديمي التاريخي للبورجوازية كطبقة عالمية في مراكز النظام وفي أطرافه بالرغم من التقدم التقني السريع في ظل الرأسمالية ، وبالرغم من النمو السريع لقطاعات دول بشكل منعزل ومتقاوٍ . كما تشير إلى عنف وعدوانية وعسكرة الإمبريالية وإلى اشتداد الظلم القومي وإلى الرجعية في الفكر وفي السياسة في ظل جميع النظم سواء أكانت جمهورية أم ملكية ، فاشية أم بونابرتية ..بالرغم من أهمية الفروق بينها .

9- من خواص الرأسمالية في المرحلة الإمبريالية بوجه عام فصل ملكية الرأسمل عن توظيف الرأسمل في الإنتاج ، فصل الرأسمل النقدي عن الرأسمل الصناعي / التجاري أو المنتج وعن جميع المشترين مباشرة في إدارة الرأسمل .

والإمبريالية أو سيطرة الرأسمل المالي هي مرحلة الرأسمالية العليا التي يبلغ فيها هذا الفصل مقاييس هائلة . وهيمنة الرأسمل المالي على بقية أشكال الرأسمل تعني سيطرة صاحب الدخل (المستثمر المضارب) الذي يعيش فقط من عائدات الرأسمل النقدي تعني بروز عدد ضئيل من الدول التي تملك "البأس" المالي بين سائر الدول ويمكننا أن ننوه



نطاق هذا السير من أرقام إحصاءات الإصدارات المالية والأسهم والسنادات ، أي حجم إصدار مختلف أنواع الأوراق المالية .

II- البلبة الفكرية الحاصلة على أثر تفكك الاتحاد السوفياتي ، وما تبع ذلك من نشاط إمبريالي ثقافي / إعلامي هائل.

لقد شكلت نهاية السبعينيات من القرن الماضي لحظة ظهور تغيرات مهمة على المستوى الدولي شملت:

1- كسر عالمي تبع ارتفاع أسعار النفط على أثر حرب 1973 بين العرب وإسرائيل. وكانت الحرب الباردة واعتماد دولة الرعاية الاجتماعية (بعد أزمة 1929 ، وعلى أثر انتصار الثورة الاجتماعية في روسيا 1917) قد ساهمت في تعميق هذا الوضع .

2- علامات واضحة على توقف النمو الاقتصادي السوفياتي بفعل اهتراء النظام البيروقراطي السوفياتي وضغط الحرب الباردة منهك .

3- انتصار الثورة الشعبية الإيرانية بقيادة آيات الله ممثلي طبقة البازار التقليدية البورجوازية الصغيرة. وما ولد هذا الانتصار من ديناميات ثقافية / سياسية .

4- اعتماد الدول الإمبريالية الرئيسية (الولايات المتحدة، والمملكة المتحدة) سياسات لبرالية جديدة تدعو لتحرير الأسواق أمام نشاط وتدفق رؤوس الأموال الموظفة في الخارج والعاملة في المضاربات المالية نظراً لتحرير النظام النقدي من مراقبة البنوك المركزية والدول الرأسمالية .

مع نهاية الثمانينيات من القرن الماضي ظهرت نتائج العوامل سالفة الذكر:

1- تفكك الاتحاد السوفياتي.

2- ظهور نوع من المد الديني السلفي، مع ميل للثقافة الدينية للعمل في الحقل السياسي (تعاظم ظاهرة الحزب الديني).

3- ظهور بعض نتائج السياسات الليبرالية الجديدة: ميل النظام الإمبريالي لتعزيز قدراته العسكرية عبر تعزيز حلف شمال الأطلسي وتكتيفه بمهام عدوانية عبر ما سمي بالتدخلات العسكرية ذات النزعة الإنسانية لدعم الأقليات القومية والإثنية والطائفية. انهيار عملات بعض البلدان، ظهور دعوات الشخصية وتحرير الأسواق أمام نشاط رأس المال المالي الدولي، وإجراء تغيرات اقتصادية هيكلية أو كلية في اقتصادات الدول المختلفة أو الناشئة تحت إشراف و kontrolات صندوق النقد الدولي والبنك الدولي. وذلك لتسهيل دخول وخروج الاستثمارات الدولية قصيرة الأجل المضاربة بكل شيء حيوي وأساسي لحياة البشر.

4- ظهور مفاهيم جديدة في التداول الثقافي العالمي (العلوم، المجتمع المدني ، صراع الحضارات أو الثقافات ونهاية التاريخ ، الشخصية و كف تدخل الدولة في العملية الاقتصادية الاجتماعية (نهاية دولة الرعاية الاجتماعية) الخ..

إن السهولة التي انتشرت بها هذه المفاهيم ناجمة بالأساس عن الآلة الإعلامية الضخمة للمؤسسات الاحتكارية الدولية المستقيمة من وجود ما سمي بالتقنية ذات الطابع الدولي (البث الفضائي، والاتصالات الفضائية، والربط الإلكتروني)، ومن تطور وسائل الإعلام المرئي والمسموع والاتصالات والمواصلات. ومستقيمة من البلبة الفكرية العالمية التي أعقبت تفكك الاتحاد السوفياتي وانتهاء الحرب الباردة ، وما سببته هذه البلبة وذاك الإعلام الهائل الموجه من انجراف آلاف المتلقين من حقل اليسار الماركسي إلى الحقل الليبرالي الجديد.

III- تبعات الهجوم الأمريكي (قصف يوغسلافيا واحتلال العراق وأفغانستان) : بربرية النظام الإمبريالي الرأسمالي



أدى احتلال العراق وأفغانستان وقصف يوغسلافيا من قبل قوات التحالف الإمبريالي بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية إلى زعزعة الكثير من المفاهيم السالفة الذكر . وقد توضح على أثر العدوان زيفها ونفاقها الأيديولوجي ودورها الوظيفي في التمهيد النفسي للعدوان خاصة مفاهيم الحرية والديمقراطية والازدهار الاقتصادي بفعل الاستثمارات الأجنبية والشخصية ، وغير ذلك ..

لقد استطعنا ، خاصة مع انفجار الأزمة الرأسمالية الاقتصادية/المالية الأخيرة، من أن نميز العناصر الأساسية التي قام عليها مصطلح "العولمة" وذلك على النحو التالي:

- 1- فك ارتباط الدولار بالذهب عام 1971 بمبادرة من نيكسون.
 - 2- نشأة وتعزز التكنولوجيا ذات الطابع الدولي (البث والاتصال الفضائي، الربط الإلكتروني)، ثورة المواصلات والاتصالات.
 - 3- اعتماد ما سمي بالسياسات الليبرالية الجديدة من قبل الدول الإمبريالية الرئيسية وامتداد ذلك لاحقاً إلى الكثير من الدول الرأسمالية الظرفية المختلفة. شمل ذلك تحرير الأسواق وكف يد الدولة عن مراقبة الأسعار. حرية تدفقات رؤوس الأموال الموظفة والمضاربة عبر الحدود القومية ، خصخصة مؤسسات الدولة ، وانسحاب الدولة من التزاماتها الاجتماعية تجاه الطبقات الفقيرة .
 - 4- تعاظم الاستثمارات المالية في الخارج إلى حد هائل، واتجاه المضارب منها إلى الأسواق الناشئة والبلدان المختلفة الكبيرة. وتعاظم التوظيفات الأمريكية في الخارج خاصة في أوروبا.
 - 5- ميل متزايد لرأس المال المالي النقيدي للتوظيف في الخارج كاستثمارات مباشرة قصيرة الأجل ومضاربة.
 - 6- محاولات النظام الإمبريالي بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية ، وعبر الغزو والعدوان لاستعادة البلدان التي نقلت من الشبكة الإمبريالية على أثر الحرب العالمية الثانية.
- ٧- الأزمة الاقتصادية /المالية الرأسمالية الأخيرة**
- هي أزمة اقتصادية/مالية للرأسمالية وليس أزمة عامة للرأسمالية نظراً لغياب حركة اشتراكية ماركسيّة قوية وبالتالي نظراً لغياب البديل بالمعنى التاريخي . بالرغم من ظهور علامات أولية على حركات كهذه في أمريكا اللاتينية . لهذا السبب فالأزمة أزمة اقتصادية هائلة الحجم لكنها متلاشية ، نظراً لقدرة الرأسمالية مستعينة بدولتها في الخروج المؤقت من هكذا أزمات. لكن طبيعة وحجم الأزمة الراهنة تجعل تكرارها أمراً وارداً وبفترات متقاربة نسبة إلى التاريخ القريب للرأسمالية. خاصة وأن رأس المال المالي النقيدي الناشط في المضاربات الدولية وفي الاستثمار والرهن العقاري وفي المواد الأساسية بلغ من الضخامة حداً قارب قيمة الناتج الإجمالي الأمريكي.

واعتباراً من 1979 سنة الإعلان الرسمي عن تبني السياسات الليبرالية الجديدة ، سوف تظهر القروض قصيرة الأجل والمضاربات المالية كوسيلة لتنحريك الفائض الاقتصادي من دون زيادة في الإنتاج الحقيقي ، لكنها ستتعصب في الوقت نفسه دوراً مدمرة لأسواقها: أزمة النمور الآسيوية وانهيار أسواقها 1997 ، ومن ثم أزمة الغذاء العالمي والارتفاع الجنوبي في أسعار مواد الغذاء الرئيسية خاصة الأرز ، والارتفاع الجنوبي في أسعار النفط الخام ، وأخرها الأزمة المالية والاقتصادية التي عصفت ببنوك الاستثمار وبنوك الرهن العقاري في الولايات المتحدة وامتدت بسرعة لتشمل الاقتصاد الرأسمالي عامة متسبية بموجة ركود اقتصادي وكساد شاملة.

يميل الفائض الاقتصادي الرأسمالي لارتفاع من حيث حجمه المطلق ومن حيث نسبته إلى الناتج الكلي معاً كلما تطور النظام الرأسمالي الاحتكاري.



يحقق النظام الرأسمالي الاحتكاري زيادة في فائض الإنتاج عبر الآليات التالية:

١- التسعير الاحتكاري

٢- ميل تكاليف الإنتاج لانخفاض نتجة التقدم السريع والمتواصل في التكنولوجيا وفي إنتاجية العمل

٣- إعانت الدولة الرأسمالية الاحتكارية (الدولة الإمبريالية) للبحوث الزراعية والصناعية وإعانت تسهيل اندماج الشركات القومية في الصناعات الرائدة (شبيات الذكرة) بهدف زيادة حصة الشركة "القومية" الأمريكية في السوق الدولية.

قد يبدو هذا من ناحية الشكل حجة في مصلحة الرأسمالية الاحتكارية ، إذ تبدو على هذا الشكل نظاماً رشيداً أو تقدماً. ولو أمكن فصل اتجاهها لخوض التكاليف عن التسعير الاحتكاري على نحو ما ، وإيجاد وسيلة لاستخدام ثمار الإنتاجية المتزايدة لمصلحة المجتمع ككل ، لأن أصبحت هذه الحجة قوية فعلاً. ولكن هذا بالضبط ما لا يمكن تحقيقه. إن الحافز الكلي لخوض التكاليف هو زيادة الأرباح ، ويمكن ترکيب الأسواق الاحتكاري الشركات من الحصول على نصيب الأسد في ثمار الإنتاجية المتزايدة على شكل أرباح أعلى. وهذا يعني أن التكاليف المتباينة في ظل الرأسمالية الاحتكارية تتطوّر على توسيع حدود الربح باستمرار. بدوره ينطوي توسيع حدود الربح باستمرار على أرباح إجمالية تزيد ليس فقط بصفة مطافقة وإنما كحصة من الناتج القومي أيضاً. هكذا تترافق باستمرار كل نقدية هائلة لدى حفنة من الدول الإمبريالية سوف تجد مجالاً لتحركها في القروض قصيرة الأجل للدول التي تخضع لشروط صندوق النقد الدولي ، وفي المضاربات المالية الدولية عبر بنوك الرهن العقاري وصناديق الاستثمار.

في صيف 1997 "تعرضت النمور الآسيوية لحركة واسعة من المضاربات و هروب رؤوس الأموال إلى الخارج بكميات هائلة مما عرّض موازين مدفوعاتها لعجز شديد. وقد تم تمويل هذه المضاربات من خلال التحويلات الخاصة والقروض الخارجية قصيرة الأجل التي شكلت في التحليل النهائي ، أموالاً ساخنة Hot Money تتطاير بسرعة من سوق نقدية لآخر في شكل أسراب جارحة تتقدّم على الأرباح الموجدة في سمي بالأسواق الناشئة بجشع شديد . ثم تلتهمها وتخرج سريعاً للخارج إلى سوق آخر ...

والحقيقة أن التزايد الهائل الذي حدث في حركة رأس المال الدولي المضارب في السنتين الخمسة الأخيرة [1994-1999] إنما يعود إلى تأثير عولمة [انفلات] أسواق النقد من خلال تحرير المعاملات المالية وسرعة حركة وانتقال رؤوس الأموال في لمح البصر عبر وسائل الربط والاتصالات الإلكترونية بين مختلف أصقاع العالم وصعوبة مراقبة هذه الحركة من قبل البنوك المركزية . كما عضّ نمو هذه الحركة تطور الابتكارات المالية التي وفرت أشكالاً مختلفة ومتعددة من الاستثمار المضارب . كما عكست هذه الحركة النشاط الواسع الذي قام به الشركات عابرة القوميات في هذا المجال وكذلك نشاط ما سمي بصناديق الاستثمار Investment Funds التي يصل عددها الآن على صعيد العالم إلى حوالي 770 صندوقاً استثمارياً ضخماً. تم حشد الموارد المالية لها من شركات التأمين وصناديق التأمين والمعاشات وكبريات الشركات الصناعية . وهذه الصناديق تتعامل الآن في أصول مالية تتجاوز بكثير حجم الاحتياطيات الدولية التي تملّكها البنوك المركزية في مختلف دول العالم. وتشير البيانات المتاحة إلى أن المعاملات المالية في الأسهم والسنداط عبر الحدود (المقيمين وغير المقيمين) في البلدان الصناعية كانت في حدود 10 % من الناتج المحلي الإجمالي في هذه البلدان في عام 1980 ، لكنها الآن ، تزيد على 100 % من هذا الناتج .. وقد ارتبط تزايد المعاملات المالية العالمية في الأسهم والسنداط (أو فيما يسمى بالاستثمار في الحافظة المالية Portfolio Investment) بذلك النمو غير العادي الذي حدث في تداول النقد الأجنبي يومياً على الصعيد العالمي . فالمتوسط اليومي لحجم المعاملات في أسواق الصرف الأجنبي قد ارتفعت من حوالي 200 مليار دولار في منتصف الثمانينيات إلى حوالي 1,2 تريليون دولار يومياً في عام 1996 ، وهو ما يعادل 85 % من حجم الاحتياطيات الدولية لجميع بلاد العالم . وذلك يوضح مدى الصعوبة التي أصبحت



تواجهاً البنوك المركزية في التأثير في أسعار صرف عملاتها الوطنية أمام جحافل رأس المال المالي الدولي قصيرة الأجل".

"هذا النشاط المضارب الهائل الذي أصبحت تتسم به الحركة الدولية لرؤوس الأموال وعلى نحو يتجاوز بكثير حركة الاستثمارات الأجنبية المباشرة ، أصبح يشير إلى حقيقة خطرة جداً . وهي أن الشطر الأكبر من الأرباح التي أصبحت تتحققها كبريات الشركات الصناعية في العالم لم يتحقق في مجال الإنتاج الحقيقي ، بل في الاستثمار في حافظة الأوراق المالية . وهذا دليل دامغ على الطابع التفيلي الذي تتسم به الرأسمالية الاحتكارية المعاصرة (الإمبريالية الرأسمالية) . كما أن هذا النشاط المضارب يقف وراء كثير من الأزمات النقدية والمالية التي حدثت في بلاد كثيرة بسبب ما يسببه من ارتفاع جنوني في الأسعار دون مبرر حقيقي . ثم هبوطها مرة واحدة . تماماً مثل باللون ينتحل أكثر من اللازم ولا بد أن تأتي لحظة انفجاره . وفي ضوء هذا النشاط المحموم والجنوني الذي حدث في ارتفاع أسعار الأصول المالية والمادية بسبب المضاربات نشأت ما تسمى "الاقتصادات المنفوخة" التي من أنشطتها المضاربات وتهددها الأزمات".

وإذا أضفنا سعي النظام الإمبريالي لاستعادة ما فقدته الشبكة الإمبريالية بعد الحرب العالمية الثانية وتفكك الدولة السوفيتية كعقبة كانت قائمة أمام حرية التحرك الأميركي الذي تكون لوحة ما يدعى بالعولمة قد اكتملت.

"بعد انتصار الثورة الروسية 1917 دخل عنصر جديد في هذا الصراع التنافي: النزوع إلى إعادة السيطرة على هذا الجزء من العالم الذي انفلت من النظام الإمبريالي والحاجة إلى منع مناطق أخرى من الهرب من الشبكة الإمبريالية. ومع نهاية الحرب العالمية الثانية أدى اتساع الجزء الاسترالي من العالم وتحطيم القسم الأكبر من النظام الاستعماري إلى زيادة حدة النزوع إلى إنفاذ أكبر قدر ممكن من الشبكة الإمبريالية واستعادة الأقاليم التي فقدتها. وفي هذا الإطار يتذبذب الغزو صوراً مختلفة حسب الظروف: عسكرية وسياسية واقتصادية".

ومنذ 1945 كانت الظاهرة الجديدة هي تولي الولايات المتحدة زعامة النظام الإمبريالي بأكمله. إذ أنه نتيجة لنضجها الاقتصادي وقوتها العسكرية من ناحية وللتدمير الذي أحق بمنافسيها من ناحية أخرى صار لدى الولايات المتحدة القدرة والفرصة لتنظيم الشبكة الإمبريالية المعاصرة وقيادتها.. وقد سارت عملية تنظيم النظام الإمبريالي بعد الحرب عن طريق الوكالات التي أنشئت قرب نهاية الحرب: الأمم المتحدة، البنك الدولي ، صندوق النقد الدولي. وقد استطاعت الولايات المتحدة ، لأسباب مختلفة ، أن تمارس في كل منها دور الرزامة. وتم تدعيم هذا النظام عن طريق أنشطة هيئة التعمير والإغاثة ومشروع مارشال وبرامج المعونة الاقتصادية والعسكرية العديدة التي تمولها وائشطنون وتسيطر عليها.

لقد حاول أيديولوجيو الإمبريالية إحلال "العلوم" كمفهوم أيديولوجي وهو يؤشر إلى تحولات جزئية في عمل الإمبريالية وسياسات ليبرالية جديدة قائمة على حرية حركة رؤوس الأموال عبر الدول وعلى خصخصة المشروعات وعلى محاولة إعادة الأجزاء التي تفلتت من الشبكة الإمبريالية ، ومعتمدة على التطور التكنولوجي ذي الطابع الدولي ، محل مفهوم الإمبريالية الاقتصادي/ السياسي الشامل وذو المغزى الاجتماعي (الطبقي). لكن المحاولة فشلت إلى حد كبير مع سلسلة الغزوات الأمريكية ومع احتلال العراق وأفغانستان وأخيراً مع الأزمة المالية والاقتصادية الضخمة التي انفجرت عبر إفلاس بالجملة لبنوك الاستثمار وبنوك الرهن العقاري في الولايات المتحدة.

وبعد : فإن "الدرس الهام الذي يجب تعلمه من تاريخ الرأسمالية هو أن المشاكل الكبرى (الأزمات الاقتصادية) لا تؤدي إلى انهيارها انهياراً أوتوماتيكياً ... فمصير الرأسمالية في النهاية سوف تحدده فقط الطبقة الناشطة داخل المجتمع والأحزاب القائمة على هذه الطبقة والتي لديها الإرادة والقدرة على استبدال النظام القائم"

٧- الإمبريالية؛ عرض تاريخي



١- أنواع الإمبراطوريات

الإمبراطوريات القديمة القائمة على أنماط إنتاج ما قبل الرأسمالية كالرومانية والعثمانية والصينية والعربية والمغولية وغيرها وهي عبارة عن رابطة سياسية بفعل سيطرة قوة رئيسية ما أن يضعف المركز السياسي حتى تتقاذك الإمبراطورية (Empire)

الإمبراطوريات القائمة على نمط الإنتاج الرأسمالي في مرحلته التجارية والصناعية مثالها الكلاسيكي الإمبراطورية البريطانية القائمة على احتكار الصناعة الحديثة والتجارة وهي قائمة على حيازة المستعمرات وتصدير البضائع المصنعة واستيراد المواد الأولية . وتعمل على تدمير الصناعات المحلية الحرفية بسرعة بفعل المنافسة ورخص الأسعار والقوة العسكرية

الإمبريالية كمفهوم جديد ظهر اعتباراً من عام 1900 وهو مفهوم اقتصادي سياسي أساسه الاحتكار وسيطرة رأس المال المالي والطغمة المالية وتصدير الرساميل بدلاً من تصدير البضائع ، والميل إلى الاغتصاب والعنف والرجعية في السياسة والفكر والضم والإلحاد والغزو والاعتداء على سيادة الدول الضعيفة والظلم القومي ؛ أي الميل للرجعية والسيطرة من الناحية السياسية . كما يميل إلى مراقبة كميات ضخمة من الأوراق المالية النقدية وإلى فصل متعاظم للوظيف في المضاربات المالية بالمقارنة في القطاعات المنتجة من صناعة وتجارة وزراعة

٢- 1860 بداية مرحلة جديدة في الرأسمالية: كсад 1876 في أمريكا وما نتج عنه من حركة اندماجات واسعة . إن تمركز رأس المال الناتج عن الاندماجات سمح بتطبيقات تقنية للاكتشافات العلمية في القرن الثامن عشر والتاسع عشر.

٣- 1900 تبلور الظاهرة الجديدة ؛ تمركز رأس المال في المؤسسات الصناعية العملاقة وفي حفنة من البنوك الضخمة واقتران الإثنين مع هيمنة البنك على النشاط الصناعي والتجاري وظهور النشاط في سوق الأوراق المالية والمضاربات المالية. ظهور رأس المال المالي كتعبير عن الاقتران السالف الذكر. هذا التمركز الشديد قاد إلى ظهور الاحتكارات العملاقة: احتكار السوق القومية الداخلية والتمدد نحو احتكار الأسواق العالمية ونشوء الاستعمار الإمبريالي الاقتصادي (الكولونيالية الاقتصادية): يكتسب تصدير الرأسمال والتوظيفات في الخارج والنشاطات المالية المضاربة أهمية شديدة في نشاط رأس المال المالي ودولته

٤- 1910: صعود متسارع لثلاث اقتصادات فتية هي ألمانيا والولايات المتحدة الأمريكية واليابان .

٥- بروز ظاهرة انقسام نشاط رأس المال المالي إلى مضارب ومنتج [ظاهرة الأوراق المالية وإصدارات السندات والأسهم والمتاجرة بها وبسندات الدين الحكومية والخاصة]

٦- اقتران رأس مال البنك مع رأس مال اتحادات الصناعيين مع هيمنة البنك وظهور احتكارات عملاقة يهيمن البنك عليها (رأس المال المالي) ؛ واقترانها (اندماجها) مع احتكارات الدولة ؛ اندماج الاقتصادي بالسياسي في حركة جباره واحدة وظهور الإمبريالية كظاهرة اقتصادية/ سياسية تزعزع إلى السيطرة والإخضاع والإلحاد لا إلى الحرية وتجعل من الديموقراطية البورجوازية كذبة سخيفة . وهم الديمقراطية والحرفيات السياسية والاقتصادية في عصر الإمبريالية . لا تعمل الإمبريالية على تخفيض الحس النقمي في الفكر الحديث فحسب بل حاولت أن تدمج وتسوّب مشروع الطبقة العاملة السياسة في البلدان المركزية (ظهور الإنتهازية العالمية كظاهرة دولية ؛ المنشفة أو الاشتراكية الدولية كظاهرة عالمية ؛ انقسام البروليتاريا العالمية) . تهئة أوربا وأمريكا الشمالية اجتماعياً والهجوم الإمبريالي على بقية العالم للسيطرة عليه واستثماره وخاصة آسيا ومعها روسيا.

٧- اقتسم العالم من قبل الاحتكارات الدولية لا يعني الصراع على إعادة الاقتسم : "لا يستطيع الاحتكار في نظام الرأسمالية أن يزيل المزاحمة من السوق العالمية بصورة نهائية ولبرهة طويلة .. ومن الواضح أن إمكانية تخفيض



تكليف الإنتاج وزيادة الأرباح عن طريق إدخال التحسينات التكنيكية تعمل في صالح التغيرات [إعادة الاقتسام بفعل تغير موازين القوى الاقتصادية والسياسية والعسكرية].. ولكن ما فطر عليه الاحتياط من ميل إلى الركود والتغافل يواصل عمله بدوره وهو يتغلب في وقت معين في بعض فروع الصناعة وفي بعض البلدان ... إن الإمبريالية هي تراكم هائل للرأسمال النقمي في عدد قليل من البلدان (مالك الأوراق المالية) " ما يدفع لنشاط المضاربات المالية عبر الحدود وتصدير الرأسميل قصيرة الأجل حيث يمكنها الانسحاب بسرعة من سوق لأخر ويسعى بطبع الطفيلي كامل البلاد التي تعيش من استثمار عمل مئات البلدان ما وراء البحار ، ويشدد هذا الوضع لدرجة أكبر عزلة فئة أصحاب المداخلات التامة عن الإنتاج.

8- هيمنة الولايات المتحدة على النظام الإمبريالي بعد الحرب العالمية الثانية . تركز الثروة فيها وسيطرة الدولار كعملة عالمية وقومية . نيويورك مصرف العالم بدلًا من لندن . إعمار أوروبا واليابان عبر مشروع مارشال ؛ وتغلغل الشركة الاحتكارية الأمريكية في أوروبا واليابان وكندا. وهىمنتها على هذه الأسواق .

9- تصاعد الاستثمار في الخارج والتوظيفات المالية بشكل هائل بعد الحرب العالمية الثانية (الإمبريالية من دون مستعمرات أثناء الحرب الباردة على أثر انتصار السوفيات في الحرب وحركة التحرر الوطني / القومي) ظهور السلاح النووي كقوة ردع عالمية

10-كساد منتصف السبعينيات على أثر الحرب بين العرب وإسرائيل : موجة اندماج في الشركات الدولية ، ظهور ما يسمى بالتقنيات ذات الطابع الدولي (تكنولوجيا الفضاء والاتصالات الفضائية ، الحواسيب والربط الإلكتروني ، ثورة المواصلات : السيارة والطائرة)

11- 1980 : تحرير الأسواق وحركة تدفق رؤوس الأموال والتوظيفات عبر الحدود القومية ، الانفلات من مراقبة الدولة والبنوك المركزية: التظيرات المعادية لدولة الرعاية الاجتماعية . كف يد الدول عن التدخل في حركة سوق يسيطر عليها رأس المال المالي والشركات الاحتكارية الدولية والمضاربات المنفلترة من عقلاها. الشخصية ووحشية السوق الإمبريالية .

12- 1997 انفجار أزمة النمور الآسيوية وقبلها أزمات مالية في المكسيك والأرجنتين (انهيار عملات وطنية). وقد سبق هذا حرب الخليج الأولى ولاحقاً قصف بوغسلافيا ومن ثم احتلال أفغانستان والعراق . تجدد الغزو الإمبريالي في محاولة لاستعادة الأجزاء المتفوقة من الشبكة الإمبريالية على أثر الحرب العالمية الثانية .

13- أزمة الغذاء العالمي بعد 2005 والارتفاع الجنوني في أسعار النفط كل ذلك نتيجة المضاربات الهائلة في هذه المواد الأساسية والحيوية للشعوب .

14- 2007 انفجار أزمة الرهن العقاري وانهيار بنوك الاستثمار في الولايات المتحدة: الإمبريالية الرأسمالية تشهد أخطر أزمة مالية واقتصادية وأضخمها في تاريخها الحديث .

توضيب البيت الأوروبي عدا روسيا من قبل الولايات المتحدة للهجوم على بقية العالم خاصة آسيا، تظهر الصين وروسيا وإيران وفنزويلا ، الخ .. كدول تقاوم مشروع التوسيع الإمبريالي

يظهر وهم ديمقراطية الإمبريالية خلال الأزمة : خطة للإنقاذ بمليارات الدولارات تؤخذ من الناخبين الفقراء عبر الضرائب وتحل لصالح المضاربين والأثرياء من أصحاب البنوك والشركات العملاقة الاحتكارية.

على أثر الأزمة زيادة التفاوت في الدخل والثروة في أمريكا وأوروبا حلال فترة اعتماد السياسة الليبرالية الجديدة .



أظهرت الأزمة الرأسمالية الأخيرة من جديد أن الاشتراكية- الديمقراطية [الاشتراكية الماركسية] هي البديل الحقيقي للنظام الرأسمالي على المستوى العالمي، والقومي .

كم أظهرت بشكل واضح أن الخيار الشعبي في سوريا هو الحل وليس الامتنال لسياسات التكيف الهيكلي الكلي التي يملتها صندوق النقد الدولي الذراع المالي للسياسات الإمبريالية والتي تهدف إلى خصخصة مؤسسات الدولة وتحرر السوق من المراقبة الحكومية وإثراء قلة من السكان على حساب أغلبية الشعب، فلة تعمل سمساراً لرأس المال المالي وتغدو صورة العلاقة الإمبريالية في أطراف النظام.

VI- السمات الجديدة للإمبريالية الرأسمالية الراهنة

تتميز إمبريالية الوقت الحاضر بعدد من السمات الجديدة وهذه السمات هي:

1- تحول موطن التركيز الرئيسي من التنافس على تقسيم العالم إلى الصراع ضد تقلصات النظام الإمبريالي. بكلام آخر: ظهور ديالكتيك جديد للعلاقة بين الدول الإمبريالية الرئيسية وهو ديالكتيك الاندماج/ المنافسة مع هيمنة الاندماج بين الدول الإمبريالية الرئيسية. و ديالكتيك آخر هو الصراع بين النظام الإمبريالي تحت قيادة الولايات المتحدة والدول ذات التحرك القومي "المستقل" (الصين ، روسيا، إيران ، كوريا الشمالية ، فنزويلا، كوبا، الخ..) والتي تعرقل تحرك النظام الإمبريالي في سعيه لاستعادة ما نقلت من الشبكة الإمبريالية أو منع تقلبات جديدة.

2- الدور الجديد للولايات المتحدة كمنظم وقائد للنظام الإمبريالي العالمي

3- نشأة التكنولوجيا ذات الطابع الدولي (البث الفضائي والاتصال الفضائي، الربط الإلكتروني)

علينا أن نضيف ملاحظتين هامتين عن الإمبريالية:

1- بما أن الدولة الحديثة هي صاحبة حصة كبيرة في تروست الدولة الرأسمالية ، فإنها (الدولة الإمبريالية الرأسمالية) هي الذروة المنظمة الأعلى والأكثر شمولية لهذا الأخير. ومن هنا تأتي سلطتها الضخمة ، بل والرهيبة الهائلة تقريرياً.

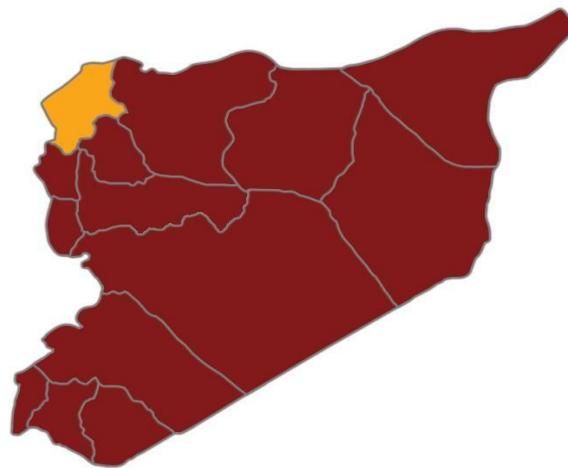
2- يتضمن قانون رأس المال المالي ، كلاً من الإمبريالية والعسكرة ، وبهذا المعنى فإن العسكرية لا تقل عن رأس المال المالي ، في كونها ظاهرة تاريخية نموذجية. أي الارتباط العضوي بين العسكرية والإمبريالية ؛ بين العسكرية ورأس المال المالي

إن أهمية النفقات العسكرية قد أثرت في الواقع في جميع البلاد الرأسمالية الصناعية .. وغدت النفقات الحربية حافزاً للنمو الصناعي ...

تُعلم مجموع البلاد الرأسمالية الرئيسية الإنتاج بالجملة . كذلك كان يجب أن يطابق استهلاك بالجملة في كل وقت هذا الإنتاج. ولم يلبث تحالف اقتصاد الحرب ودولة الرفاهية(الرعاية) أن أعطى التدخلات الحكومية وسائل ضمان الاستهلاك بالجملة . إن الطلبيات الحكومية العسكرية هي سوق هائلة للشركة الاحتكارية العملاقة ، ومن خلال ذلك يعاد توزيع الدخل القومي مرة أخرى لصالح الشركة الاحتكارية العملاقة ، ويظهر مرة أخرى نفاق و تهافت "الديمقراطية" الإمبريالية. وهو ما يجعل من المسألة الديمقراطية مهمة أساسية للحركة الاشتراكية الماركسية، ولليسار الماركسي عموماً.



ملحوظة: إن المواد المترجمة المنشورة تعبر عن آراء كتابها ولا تعبر بالضرورة عن آراء وتوجهات "الحزب الشيوعي السوري - المكتب السياسي".



موقعنا على الإنترنت:

 www.scppb.org

صفحتنا على الفيسبوك:

 facebook.com/scppb.org

موقعنا على الحوار المتمدن:

 www.ahewar.org/m.asp?i=9135